الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة ابن خلدون - تيارت

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

مُذكرة مُقدمة ضمن متطلبات نيل شهَادة ماستر في اللغة والأدب العربي

تخصص: أدب حديث ومعاصر

صُورَة الآخَر فِي الرِّحْلَة الجَزَائِرِيَة المُعَاصِرَة

جَنائِن الشَّرْق المُلتَهِبة رِحلَةٌ فِي بِلاَدِ الصَقَالِبَة لـ: سَعِيد خَطِيبِي أُنْمُوذجًا

إعداد الطالبتين:

- دين روزنية
- قادري إكرام

إشراف الأستاذ:

أ/د. يوسفي يوسف

أعضاء اللجنة	الصفة	الرتبة
أ/د. مكيكة محمد جواد	أستاذ التعليم العالي	رئيسًا
أ/د. يوسفي يوسف	أستاذ التعليم العالي	مشرفًا مقررًا
أ/د. بلمهل عبد الهادي	أستاذ التعليم العالي	عضوًا مناقشًا

السنة الجامعية:

1445-1444هـ/2024-2023م

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

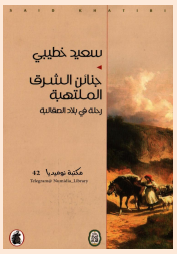

فهرس المحتويات

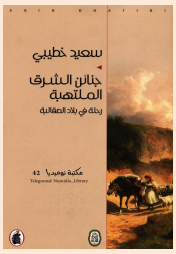

فهرس المحتويات

شكر وتقدير

الإهداء

مقدمة ..... أ

مدخل: مدخل: مفاهيم أساسية حول الصورائية

I- الصورة وأقسامها 8

أولا: تعريف الصورة 8

أ- تعريف الصورة لغة 8

ب- تعريف الصورة إصطلاحا 9

ج- الصورة في أدب الرحلة 10

ثانيا: أقسام الصورة 11

أ- الصورة الخيالية 11

ب- الصورة الذهنية 12

II- الأدب الرحلي وانفتاحه على الأجناس الأدبية الأخرى 13

III- أدب الرحلة واليوميات والإعترافات 18

الفصل الأول: صورة الآخر في أدب الرحلة

المبحث الأول: غايات الرحلة إلى أوروبا 22

أولا: دوافع علمية 24

ثانيا: دوافع سياسية وعسكرية 25
ثالثا: دوافع حضارية 26
رابعا: دوافع استعمارية 26
خامسا: دوافع اقتصادية 27
سادسا: دوافع استكشافية 28
سادسا: دوافع شخصية 29
المبحث الثاني: مفهوم الآخر في الأدب الرحلي 31
أولا: تشكيل صورة الآخر ومصادرها 32
أ. التيار الأول: الإنبهار بالغرب 33
ب. التيار الثاني: الرافض 34
ج. التيار الثالث: اعتدال النظرة وفق التفاعل الإيجابي 35
د. مصادر أخرى في تشكيل الصورة 36
ثانيا: علاقة الأنا بالآخر 38
المبحث الثالث: المشاهد الإجتماعية والدينية والثقافية للآخر 43
أولا: المشاهد الإجتماعية 43
أ. التقاليد والعادات اليومية والأخلاق 43
ب. العدالة الإجتماعية 46
ج. اللباس الأوروبي 47
د. الأكل والشرب 47
هـ. الشوارع والمنتزهات والمرافق العمومية 48
ثانيا: المشاهد الدينية 48
ثالثا: المشاهد الثقافية 50

الفصل الثاني: تجليات صورة الآخر البلقاني في جنائن الشرق الملتهبة رحلة إلى بلاد الصقالبة

المبحث الأول: الرحلة والرحالة 53

أولا: التعريف بصاحب الرحلة وأشهر مؤلفاته 53

أ. التعريف بصاحب الرحلة (سعيد خطيبي) 53

ب. أشهر مؤلفات سعيد خطيبي 53

ثانيا: دواعي الرحلة 54

ثالثا: أهم محطات الرحلة 54

المبحث الثاني: المشاهد الإجتماعيّة والدينيّة والثقافيّة للآخر في جنائن الشرق 58

أولا: المشهد العمراني 58

أ. القلعة 58

ب. القصر 59

ج. المقبرة 61

د. صورة الطبيعة 62

هـ. المسجد 62

و. الكنيسة 63

ثانيا: المشهد الإجتماعي 64

أ. الأبعاد الاجتماعية 64

ب. العادات 68

ثالثا: المشهد الديني 68

المبحث الثالث: الظواهر الفنية والأبعاد الثقافية وعلاقتها بالأنا 70

أولا: ثنائية التقابل بين الأنا والآخر 70

أ. فعل الترجمة 70

ب. فعل الغناء 71
ج. البعد اللغوي 71
ثانيا: العجائبية والغرائبية 72
ثالثا: المفاضلة والتضاد 74
رابعا: لغة وأسلوب خطيبي في الرحلة (تمثلات الآخر) 75

خـاتـــــــمـــة 80
قائمة المصادر والمراجع 83
الـــــــملاحـق
مـــلـــخـــص

شكر وتقدير

الحمد لله والشكر لله والصلاة والسلام

على رسول الله

أتقدم بجزيل الشكر والعرفان

إلى الدكتور الفاضل "**يوسفي يوسف**"

على قبوله الإشراف على هذا العمل

وعلى توجيهاته ومساعدته القيمة

موصول كل الشكر إلى أعضاء لجنة المناقشة

كما أتقدم بجزيل الشكر إلى كل أساتذتنا الكرام الذين

أشرفوا علينا خلال مسارنا الدراسي و كل من ساهم من

قريب أو بعيد في إنجاز هذا العمل ولو بالكلمة الطيبة

إهـــداء

أهدي هذا العمل المتواضع

إلى الوالدين الكريمين

إلى الإخوة والأخوات

إلى الزوج الكريم

إلى كل أفراد العائلة

إلى كل الصديقات

إلى كل من ساعدني في إتمام هذا العمل المتواضع

ولو بالكلمة الطيبة

روزنية

إهـــداء

أهدي هذا العمل المتواضع

إلى الوالدين الكريمين

إلى إخوتي وأخواتي

إلى كل أفراد العائلة

إلى كل صديقاتي

إلى كل من ساعدني في إتمام هذا العمل المتواضع

ولو بالكلمة الطيبة

إكرام

سعيد خطيبي
جنان الشرق الملتهبة
رحلة في بلاد القبائل
مكتبة تومبوكتو 42
Telegramme Numidia Library

مقدمة

يعد أدب الرحلة واحد من المظاهر التي فرضت نفسها كشكل فني له قواعده وأسسه، شاع لدى العرب منذ القديم وقد عرفته قبل العرب أمم أخرى كالفراعنة والإغريق والرومان والفينيقيين، وقد أدى أدب الرحلة دورا بارزا في تنافذ الثقافات والتجاسر فيما بينها، كما يعد وثيقة صادقة ومصدرا هاما للمعلومات سواءا أكانت جغرافية أم تاريخية أم اجتماعية فحرص فيها الأديب على استعمال أساليب متميزة، تطفح بالإبداع وتتضح بالإمناع، وتبوح بمكوناتها لمن أراد أن يستنطقها، ليغدو النص الرحلي ويحتل بذلك مكانته بين النصوص الأدبية والأجناس الأدبية الحديثة على حد سواء.

إن الرحلة هاجس طالما شغل الإنسان منذ بدأ الخليقة، مرتبطة به أشد الارتباط وبغريزة حب المعرفة لديه، والرغبة في التفكير وإشباع حاجات النفس والعقل والروح والبدن، والتطلع إلى الآفاق البعيدة، حتى في تلك الفترات الأولى كان فيها مستهلكا دون إنتاج، كانت الرحلة حيلته وهي التي كانت تحقق له أغراضه وحاجاته النفسية.

وقد شغلت الرحلة في الأدب مكانة مهمة في الثقافة العربية، فهي وسيلة من وسائل الاتصال مع الآخر والمثاقفة معه، لذا اهتم بها العرب منذ القديم وأكثروا من التأليف فيها، فتنوعت بتنوع أسبابها ومقاصدها العلمية والدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وقد تشكل للأنا صورة عند الآخر من خلال تلك الرحلات.

ومصطلح الأنا والآخر ظهر في الخطاب الديني والفلسفي وعلم النفس وتعالق هذا المفهوم مع الحقول المعرفية المتعددة ليشكل محورا رئيسيا في أدب الرحلة، إذ اهتم الرحالة الشرقي بالتعرف على الآخر في فضول ورغبة بالاستكشاف منطلقا بذلك من ثنائيات متعددة كالمركز والهامش، وأيضا ثنائية الشرق والغرب التي زرعها الاستعمار، هذه الثنائيات أدت إلى شعور الأنا رحلته وخاض مغامرته لسير أغوار الآخر والتعرف عليه عن قريب في مشار متضاربة تجاهه بين تردد وتهور وإعجاب ونفور، تلك كانت مشاعر الرحالة المتناقضة في نظريتهم إلى ذلك الآخر المتحضر والمتفوق عليهم.

ويمثل أدب الرحلة الجزائري رافدا من روافد الأدب العربي على مر العصور، إذا يعد من أهم المجالات التي استقطبت الدراسات الأدبية لثراء موضوعاتها وتنوع مضامينها، فكانت الرحلة بمثابة مغامرة تتيح الرحالة الاتصال المباشر بالعالم الخارجي.

وقد شهدت الساحة الأدبية في الجزائر نشاطا واسعا لهذا الفن إذ برز عدد كبير من الرحالة استطاعوا ترك بصمتهم في هذا المجال، فقدموا من خلال إسهاماتهم صورة عن ثقافة الآخر، فدونوا في نصوصهم الرحلية كل ما وقعت عليه أعينهم، ووصل إلى مسامعهم عن حقائق البلدان والبشر، وما مارسوه من أنشطة مختلفة في مناسباتهم وأعيادهم وما تحويه من عادات وأعراف وتقاليد شكلت الإطار العام للضحى الثقافي في حياة الأمم، ونذكر من هؤلاء أبو القاسم سعد الله، شمس الدين المقدسي، أبو الحسن المسعودي، ياقوت الحموي.

واتخذت الرحلة من هذه الناحية الأدبية أهمية كبيرة لدى الجزائريين حيث حظيت أعمال الرحالة بقدر كبير من الشهرة لما تتضمنه من معلومات قيمة ومفيدة في شتى المجالات، ومن هنا جاء تصورنا لهذه الدراسة تحت عنوان "**صورة الآخر في الرحلة الجزائرية المعاصرة**"، ووفقا عند صورة الآخر العربي اخترنا كتاب "**رحلة جنائن الشرق الملتهبة رحلة في بلاد الصقالبة**" لـ "**سعيد خطيبي**"، لما احتواه الكتاب من رحلات عديدة ومختلفة مبرزا صورة وملامح وحياة الآخر من خلال المناطق المختلفة التي زارها الرحالة حيث حرص على تدوين وتسجيل ملاحظاته في البلاد التي حط الرحالة بها، ولعلنا نحمل دوافع اختيارنا لهذا الموضوع فيما يلي:

1. وفائنا للأدب الجزائري بمختلف أجناسه وبخاصة أدب الرحلة.
2. الرغبة في دراسة أدب الرحلة لمدى انتشاره وإقبال الأدب عليه في الجزائر.
3. الرغبة في التعرف على صورة الآنا والآخر في الرحلة الجزائرية المعاصرة، من خلال تجربة الرحالة واحتكاكه بالآخر ومن خلال الصورة التي كانت في ذهنه تغيرت أم هي نفسها.

ومنه هذا المنطلق يمكن طرح الإشكالية:

- **ماذا يستفيد القارئ من تجربة الرحالة؟**
- **هل صورة الآخر من خلال هذه التجربة تغيرت أم لا يزال يحافظ على تلك الصورة النمطية؟**
- **هل الرحلة تفي بالغرض لمعرفة الآخر؟ وهل رحلة سعيد خطيبي منحتنا الصورة الحقيقية للآخر المسلم وغير المسلم؟**

ولتحقيق الهدف التي توخيناه من هذه الدراسة والإجابة عن هذه الإشكالية نقسم مضامين الدراسة إلى مدخل وفصلين وخاتمة تتناول أهم النتائج المستخلصة من هذه الدراسة.

ففي المدخل تطرقنا إلى مفاهيم ومصطلحات حول الصورائية بالإضافة إلى الأدب الرحلي وانفتاحه على الأجناس الأدبية الأخرى وعلاقته باليوميات والإعترافات، أما الفصل الأول فكان حديثنا عن صورة الآخر في الأدب الرحلي، حيث قسمنا الفصل إلى ثلاث مباحث نعرض فيها غايات الرحلة إلى أوروبا، مفهوم الآخر في الأدب الرحلي، والمشاهد الاجتماعية والدينية والثقافية للآخر، أما الفصل الثاني خصصناه لرحلة جنائن الشرق الملتهبة بالتعرف على الرحلة والرحالة سعيد خطيبي، ثم ذكر المشاهد الاجتماعية والدينية والثقافية للآخر في بلاد الصقالبة وبعدها الظواهر الفنية والأبعاد الثقافية وعلاقتها بالأنا.

ولمعالجة هذا الموضوع، إرتأينا الاعتماد على المنهج المقارن باعتبار الكاتب يقارن بين بلاد الصقالبة ببلاد الجزائر، بالإضافة إلى المنهج الوصفي التحليلي في مواجهة النصوص وتتبع أفكار الكاتب ومضامين رحلاته.

أما فيما يخص أهم المصادر المتبعة التي كانت عونا لنا فتمثلت في: شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي (التجنس، آليات الكتابة، المتخيل)، وأدب الرحلات للدكتور حسين محمد فهيم، وأدب بالرحلة عند العرب للكاتب حسين محمود حسين، إضافة إلى أهم المتن المشتغل عليه كتاب لسعيد خطيبي جنائن الشرق الملتهبة رحلة في بلاد الصقالبة.

ومن الدراسات السابقة لهذا الموضوع:

- الانخراط في مشروع أدب الرحلة للدكتور "يوسفي يوسف" ومن الصعوبات التي واجهتنا لإتمام هذا البحث.
- ندرة الدراسات المعمقة لأدب الرحلة.
- قلة الاهتمام من قبل الدارسين لهذا النوع من الأدب.
- تداخل أدب الرحلة بأجناس أدبية أخرى جعل من الباحثين دراسة الأجناس الأخرى.
- صعوبة الاتصال وأخذ المعلومات الدقيقة والمباشرة من الرحالة أنفسهم.

وأخيرا لا يسعنا إلا أن نشكر **أستاذنا الفاضل الدكتور** "**يوسفي يوسف**" على ما قدمه لنا من توجيهات ونصائح، وكذلك نشكر مكتبة الكلية.

تيارت: يوم 2024/06/12

الطالبتين: - ديـن روزنـية.

- قادري إكـرام.

مدخل

مفاهيم أساسية حول السوسيولوجيا

ازدهرت في العصر الحديث الرحلات والهجرات في معظم البلدان العربية، وقد ساعد على ذلك اختلاط الشعوب بغيرهم وإضافة إلى ذلك سهولة المواصلات والظروف السياسية والاجتماعية التي تحسنت في أوائل القرن العشرين حيث يعتبر أدب الرحلات الباعث الأساس في ظهور الاهتمام الجاد بفكرة الآخر كتيمة منفردة في البدء ليحول هذا الاهتمام إلى تخصص قائم بذاته، يعمل على دراسة الآخر دراسة شاملة، تغوص في أعماقه وتدرس تاريخه وحضارته، وتفكك آليات تركيبته الثقافية والمعرفية، وتحلل حدود قيمه الإجتماعية وأبعادها النفسية وهكذا ظهر مبحث دراسة الصورة أو علم الصورة أو الصورولوجيا، كما يحلو للبعض تسميتها كترجمة حرفية للمصطلح الفرنسي *Imagologie*، أو الصورائية كما يروق للبعض الآخر.

ويندرج موضوع الصورة ضمن الدراسات المقارنة التي تشكل فضاء خصبا لأدب الرحلات الذي يهتم بتسجيل الانطباعات ونقل صورة عن عاداته وقيم الشعوب التي قام بزيارتها الرحالة،[1] فالرحلات إذن تساهم في تشكيل صورة الأمة في أدب أمة أخرى وهي تكشف بذلك عن طبيعة العلاقة التي تسود بين الأمم والشعوب فلاشك أن حالة العداء تخلق (للأخر) صورة سلبية تسعى الأمم لتبريرها، ويجمع مفرداتها من عناصر شتى وفي هذه الحالة يجري اختزال (العدو) إلى صورة نمطية يجري التعبير عنها بكثافة ودقة، أما حالة الإعجاب فتثير صورة إيجابية مشرقة يجري بناؤها من عناصر متباينة تمثل في مجموعها الحالة الفكرية والسياسية والإجتماعية التي صدر عنها ذلك التصور.[2]

[1] **محمد غنيمي هلال**، الأدب المقارن، دار العودة، ط5، بيروت، 1983، ص419.

[2] **يوسف بكار**، خليل الشيخ، الأدب المقارن، ب.ط، الشركة العربية المتحدة للتسويق والتوريدات، جامعة القدس المفتوحة، القاهرة، 2008، ص210.

I– الصورة وأقسامها:

أولا: تعريف الصورة

أ– تعريف الصورة لغة:

تنوعت وتعددت المعاني اللّغوية لمادة "الصورة" في المعاجم العربية فجاءت كالآتي:

ورد في لسان العرب لإبن منظور صوّر: في أسماء الله الحسنى المصوّر: "وهو الذي صور جميع الموجودات ورتبها، فأعطى كل شيء منها صورة خاصة، وهيئة مفردة يتميز بها اختلافها وكثرتها.

وتصورت الشيء: توهنت صورته، فتصور لي، والتصاوير، التماثيل، يقال صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته... وصورة الأمل كذا وكذا أي صفته".[1] فالصور تدل على ما هو حسي ومعنوي أي ما ظهر منها وما بطن.

وقال ابن سيدة: "الصورة في الشكل الجوهري والصور بكسر الصاد، جمع صورة"، كما عرفها ابن الأثير في قوله: "الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشيء وهياته وعلى معنى صفته".[2] ومستفاد هذا القول أن الصورة دالة على هيئة الشيء وشكله، وصفته، وحقيقته، ورتبته، كما أنها تحمل معنى التوهم والتصور في حقيقة الأشياء ولها أبعاد معنوية.

أما مدلولها في القاموس المحيط فهو كالآتي: "الصورة بالضم: الشكل، الجمع: وصور، وصور" كعنب وصور وصوره فتصور، وتستعمل الصورة بمعنى النوع والصفة".[3] وتعني الأنواع والصفات.

أما في معجم "البستان" فجاء فيه ما يلي: "الصورة تعني، يصور، صورا ما يقال فيه عنقه صور، صوره تصويرا، جعل له صورة وشكلا، ورسمه تصور الشيء توهم صورته، طعنه فتصور أي مال للسقوط، الصورة ايضا بضم الوجه شكل الشيء تماثله وكل ما يصور مشبها بخلق الله من ذوات الأرواح"[4] أي صورة الشيء وشكله ما يشبه خلق الله.

---

[1] **ابن منظور**، لسان العرب، مادة (صور)، المجلد8، ط3، دار صادر، بيروت، 2004، ص ص303، 304.

[2] **ابن منظور**، المرجع نفسه، ص305.

[3] **الفيروز آبادي**، القاموس المحيط، ط8، مكتبة تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، مصر، 2005، ص427.

[4] **عبد الله البستاني**، البستان، معجم لغوي مطول، المطبعة الأمريكانية، ط1، بيروت، 1927، ص1273.

أما في "المصباح المنير": "الصورة هي التماثل وجمعها صور مثل وغرف، وتصورت الشيء مثلت (صورته) هو وتطلق (الصورة) ويراد بها الصفة كقولهم (صورة) الآمر كذا، أي صفته وصورة المسالة كذا أي صفتها..."[1] وتدل على معنى التمثيل والصفة.

جاءت الصورة في المفاهيم الواردة في المعاجم اللغوية تحمل معنى الوصف والتمثل والشكل وتحديد الهيئة، وبالتالي التصق مفهوم الصورة بالخلق والإبداع في صور وأشكال المخلوقات في شتى الجوانب، كما أنها تشترك في معنى التوهم والصفة والتصور في حقيقة الأشياء والصور التي تختلف فيه المعاني من حيث ارتباطها بالمدركات الحسية من جهة وبالعقل من جهة أخرى.

ب- تعريف الصورة إصطلاحا:

تعتبر الصورة من أهم المصطلحات التي تعددت دلالاتها وتطورت على مر الأزمنة ومن الصعب جدا تحديد مفهوم ثابت لها، كما قلنا سابقا وهذا راجع إلى كثرة الدراسات حولها، قد عرفها "سعيد علوش" في معجم المصلحات الأدبية: "تمثيل بصري لموضوع ما، فالصورة انتاج للخيال المحض، وهي بذلك تبدع اللغة وتعارض المجاز الذي لا يخرج اللغة عن دورها الاستعمالي"[2] فالصورة عند "سعيد علوش" هي التمثيل والتجسيد وهي أيضا كل ما يصدر من المخيلة أي هي نتاج خيالي يصور ويترجم لنا من خلال اللغة التي تتجاوز المألوف.

أما الدكتور "محمد عبد المنعم خفاجي" فيرى الصورة بأنها: "ركن كبير وعنصر جليل، من عناصر الأدب، الذي هو التعبير بأسلوب جميل عن عاطفة الأديب، سواء كان عنصر الفكر هو العنصر البارز أو عنصر العاطفة هو الأوضح، فالصورة في رأي بعض النقاد هي الشكل في النص الأدبي وتقابل المضمون الذي هو الفكرة أو المعنى في النص الأدبي شاملة للعبارة، أي الأسلوب والخيال الذي يلون العاطفة يصورها"[3] وحسب قول الدكتور "محمد عبد المنعم خفاجي": "أن الصورة تلعب دورا مهما في

---

[1] **الفيومي المقري**، المصباح المنير، المكتبة المصرية، صيدا، دط، 1996، ص192.

[2] **سعيد علوش**، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني، سوشبريس الدار البيضاء، 1985، ص136.

[3] **محمد عبد المنعم خفاجي**، مدارس النقد الأدبي الحديث، الدار المصرية اللبنانية، ط1، بيروت، 1995، ص55.

مجال الأدب فهي ركيزة أساسية من ركائزه سواء كان التعبير من خلالها ينحاز إلى العاطفة والأحاسيس، وإلى الفكر والعقلانية، إذا إنها اعتبرت الجسد الذي يحوي المضمون.

في حين يعرف "هولشي" الصور بأنها: "مجموعة معارف الفرد معتقداته، في الماضي، الحاضر، المستقبل، التي تحفظ بها وفقا لنظام معين عن ذاته وعن العالم الذي يعيش فيه"[1]، فهولشي من خلال مفهومه للصورة يؤكد لنا انها جملة المعارف والعلوم المعتقدات التي تتشكل في ذهن الإنسان على مر الأزمنة عن ذاته وعن المجتمع الذي يعيش فيه.

ج- الصورة في أدب الرحلة:

تولّد علم الصورة في أدب الرحلات لأنها تقوم على مقارنة الصورة والتمثيلات، فالرحلة تستدعي الآخر وتصوره مقارنة إياه بالذات الواصفة وهو ما يعني أن أدب الرحلة يعيش على المقارنة بين عالم مجهول جديد مختلف وعالم معروف عادي ومعياري، أي على المقارنة بين الهوية والاختلاف، ففي الواقع يركز الرحالة الأولى على مقارنة عاداته ووجهات نظره، بعادات ووجهات نظر الأجانب إنّه يقارن المناظر ويتأملها ويركبها.[2]

إن الصورة في النص الرحلي هي اكتشاف الأثر ومعاودة التجربة فيه وسط المسافة المنجزة بين الفعل ولحظة الصوغ والتدوين ويمكن تمثل الصورة التي هي تشكيل لمتخيل تجربة حققت نسقا صوريا بعناصره ومكوناته وخطابه باعتبارها استردادا للتجربة الماضية[3] أي أن الصورة في النص الرحلي نابعة من صميم التجارب التي يقوم بها الرحالة.

وتبرز العلاقة بين الصورة وأدب الرحلات في كون هذا الأخير ميدانا خصبا للمقارن كي يتناول صورة الشعوب التي رسمتها الرحالة "العرب" و"الغرب" وعليه فالمقارن لا بد له أن يطلع على أدب

---

[1] **رضوان بلخيري**، سيميولوجيا الصورة بين النظرية والتطبيق، دار قرطبة للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2012، ص76.

[2] **دانيال هنري باجو**، جاك مارك مولا، الصورة، الأنا، الآخر، تر: عبد النبي ذاكر، منشورات الزمن، سلسلة شروفات، المملكة المغربية، العدد43، 2014، ص124.

[3] **شعيب حليفي**، الرحلة في الأدب العربي (التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل)، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006، ص266.

الرحلات" القوي والأجنبي على حد سواء لتتسنى له المقارنة والموازنة بين الصور التي رسمها الرحالة لكل شعب، والمقارنة بين الرحالة أنفسهم ليميّز بين النصف الموضوعي من المتجنى المتحامل.

لذلك يعتبر أدب الرحلات وإلى جانب قيمته الترفيهية أو الأدبية أحيانا مصدرا هاما للدراسات التاريخية وذلك خاصة بالنسبة للعصور الوسطى[1]، فأدب الرحلة إذن مجال حيوي من مجالات الأدب المقارن، إذ من خلال النصوص التي ينتجها الرحالة، فنعرف كيف قدّم هؤلاء الصورة التي نقلوها عن الشعوب الأخرى أو تلك الصور التي تحملها تلك الشعوب عن الشعوب الأخرى.

ثانيا: أقسام الصورة

أ- الصورة الخيالية:

يمكن تعريف الصورة الخيالية أنها: "هي الرحلات التي يدونها أصحابها من وحي خيالهم، أي غير حقيقية ولم يقوموا حقا بفعل السفر، وفي أغلبها تكون ذات أمكنة لا توجد إطلاقا في الواقع، إذ يقوم بها الباحثون عن المدن الفاضلة، أمثال أفلاطون في "الجمهورية"، والفرابي في "المدينة الفاضلة"، وقريب منها الرحلة إلى الآخرة وفيها يقوم الفلاسفة والمفكرون والأدباء برحلة خيالية خارج عالمنا، ليعبروا بصورة رمزية عما لا يستطيعون التعبير به صراحة على نحو ما فعل ابن الشهيد الأندلسي في رسالة "التوابع والزوابع ،" وأبو العلاء المعري في "رسالة الغفران"، فهذه الرحلات تكون بمثابة الأمنية التي لم تتحقق في الواقع، فيجنحون إلى الخيال ليحققوها في عالمهم الخاص والخيالي وقد تكون ذات أبعاد مختلفة فلسفية ودينية بأسلوب شيق يتخللها حس المغامرة يتم من خلالها الهروب من الواقع إلى مكان أفضل ومثالي، أو محاولة للإجابة على بعض التساؤلات.[2]

فكما تكون الرحلة واقعية حيث يقوم الرحالة بها فعلا على أرض الواقع متنقلا بجسده من مكان لآخر معاينا وواصفا للمشاهد والمحسوس، يمكن للرحلة أن تكون خيالية أيضا.

[1] **بوقرط طيب**، أدب الرحلة بين محوري التموقع والتوقع من منظور النقد الأدبي قراءة في الإشكالات والآفاق، مجلة تاريخ العلوم، ع7، 2017، ص173.

[2] **حسين محمد فهيم**، أدب الرحلات، عالم المعرفة، الكويت، 1989، ص149.

ففي الرحلة الخيالية يطلق الكاتب عنان تفكيره لينقله بعيدا عن واقعه وعالمه إلى أماكن أخرى وأزمنة متباعدة. ومع أن رحلات الواقع تشكل في حقيقة الأمر أساس أدب الرحلات وهي التي يتناولها عادة الباحثون بالقراءة والتحقيق والتحليل إلا أننا نرى إمكانية توسيع مجال أدب الرحلات ليتضمن كل ما يكتبه الرحالة سواء من سار منهم في البقاع أو من تجول مع الأفكار وأخذ الخيال منه كل مأخذ.[1]

يتبين لنا في هذا القول أن الخيال هو القدرة العقلية على تكوين صور وتصورات جديدة بعيدا عن المدركات الحسية، فالخيال انعكاس لعالم المحسوسات، فهو يمثل الشكل والهيئة لصورة شيء خلال النوم أو خلال التأمل في شخص ما. وبالتالي كلمة الخيال تشير إلى ما نسميه بالصورة الذهنية، أي أنها تشير إلى مادة الخيال لا إلى ملكة الخيال.[2]

ب– الصورة الذهنية:

وهي كل ما يرتبط بالذهن "إذا كان مصطلح الصورة الذهنية لا يعني بالنسبة لمعظم الناس سوى شيء عابر أو غير حقيقي أو حتى مجرد وهم فإن قاموس "ويستر" في طبعته الثانية قد عرض تعريفا لكلمة *image* بأنها تشير إلى التقدم العقلي لأي شيء لا يمكن تقديمه للحواس بشكل مباشر، أو هي إحياء أو محاكاة لتجربة حسية كما انها قد تكون تجربة حسية ارتبطت بعواطف معينة، وهي أيضا استرجاع لما اختزنته الذاكرة أو تخيل لما أدركته الحواس، الرؤية، أو السمع أو اللمس أو الشم أو التذوق"[3]، ويذهب بنا هذا التعريف إلى مسافات طويلة عن الوهم لأن كل تصور عن شخص ما أو جماعة كاملة من الأشخاص هو تصور حقيقي غير زائف بالنسبة لهم والتعامل مع هذا الشخص، أو هذه الجماعة يكون وفق التصور المخزن في ذاكرتهم تجاه الآخر، سواء كان هذا التصور والمخزون حقيقيا أو زائفا.

---

[1] **حسين محمد فهيم**، المرجع السابق، ص150.

[2] **جابر عصفور**، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ط3، المركز الثقافي العربي، مصر، 1992، ص15.

[3] **نسرين زيادة**، العلاقات العامة الرقمية وبناء الصورة الذهنية عن المؤسسة الخدماتية، أطروحة دكتوراه، تخصص: اتصال وعلاقات عامة، جامعة الجزائر 3، 2023/2022، ص137.

II- الأدب الرحلي وانفتاحه على الأجناس الأدبية الأخرى:

تختلف غايات الدارسين المحدثين من تناول الرحلات ومقاربتها لتنوعها وتداخل الحقول المعرفية فيها، من جغرافية، وتاريخ، وحضارة، واقتصاد، وإثنوغرافيا♦، وسيوسيوغرافيا* وأنثروبولوجيا•، وفن، وأدب...، وإن طغى في كثير من البحوث- اتجاه يرى أن ارتباط الرحلة بالفن والأدب أكثر وضوحا، فتصنيفها ضمن الأجناس الأدبية له ما يبرره ويزكيه من صيغها التعبيرية وأساليبها الفنية، إلا أننا نرى أن ضمها لحقل معين وجنس مخصوص إهمال لطبيعة وخصوصية هذا النوع من الكتابة الذي يزخر بالمضامين والموضوعات العديدة علمية وأدبية وفنية، مما حدا ببعض الباحثين إلى التعامل مع الرحلة على أنها خطاب مخصوص له منطقه الذاتي، وبناؤه ومكوناته وعناصره[1] يتتبع العادات والتقاليد والتأثيرات الإقليمية، ويحتوي على معارف وعلوم متعلقة بالتاريخ والجغرافيا والفلسفة والاجتماع والأدب[2].

ويصرّح تودوروف بأن "مشكل الأجناس هو أحد من أقدم مشاكل الشعرية، وقد طرح منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا، فتعريف الأجناس، وعددها، والعلاقات المتبادلة بينها، لم يتوقف النقاش حولها قط"، وإذا كان ذلك النقاش حول الأجناس الأدبية دائرا في الغرب منذ القديم، فإنه انتهى اليوم بـ "دومنيك كومب *Combe Dominique*" إلى حصرها في أربعة أقسام كبيرة ولهذا قسّم الأجناس إلى:

- المتخيل السردي *Narative Fiction* الذي يضم: الرواية والأقصوصة والحكاية والقصة.
- الشعر.
- المسرح.

♦ **إثنوغرافيا**: هو علم وصف الشعوب وهو أحد علوم الإنسان وينصب على دراسة المظاهر المادية للنشاط الإنساني من عادات وتقاليد كالمأكل والمشرب والملبس.

* **سيوسيوغرافيا**: علم الاجتماع هو دراسة الحياة الاجتماعية للبشرِ، سواء بشكل مجموعات، أو مجتمعات، وقد عرف أحياناً كدراسة التفاعلات الاجتماعية.

• **أنثروبولوجيا**: هي علم الإنسان، علم يبحث في أصل الجنس البشري وتاريخ تطوره وأعراقه وعاداته ومعتقداته وعلاقاته وتوزيعه الجغرافيّ، وفي السلالات البشرية وخصائصها ومميزاتها.

[1] **سعيد بن سعيد العلوي**، أوروبا في مرآة الرحلة، (د.ط)، كلية الآداب، الرباط، 1995، ص14.

[2] **جبور عبد النور**، المعجم الأدبي، بيروت، د.ط، 1979، ص122.

– المقالة (*Essai*) التي تضم: الخطاب الفلسفي أو النظري، والسيرة الذاتية، والذكريات، والمذكرات الشخصية، والمراسلات، والتقارير وحكاية الرحلة.[1]

هكذا إذًا، تتجنس الرحلة في النقد الغربي، عند كومب، أما "أغناطيوس كراتشكوفسكي *Ignati Kratchkovski*" فيصنف الرحلة (العربية أساسا) ضمن الجغرافيا الوصفية، التي ترتبطبها ارتباطا وثيقا قصص الرحلات"، وبهذا تصطبغ الرحلة عنده بصبغة علمية (الجغرافيا) وصيغة أدبية (القصص)، وهذا ما سوغ له استعمال عبارة الأدب الجغرافي" الذي "يقدم متعة ذهنية كبرى، إذ نلتقي فيه بنماذج أدبية فنية رائعة، صيغت بالسجع أحيانا. والمصنفات الموضوعة من أجل جمهرة القراء يتراوح فيها العرض بين الجفاف والصرامة من جهة، والإمتاع والحيوية من جهة أخرى. وهنا تبدو مقدرة العرب الفائقة وبراعتهم في فن القصص.[2]

وإذا كان هذا النقاش يجري في النقد الغربي، فإن النقد العربي القديم كان شبه غائب، عن هذا المضمار، إذ اكتفى بتقسيم الأدب إلى الثنائية المعروفة: الشعر والنثر، وقسم الشعر إلى أغراضه، والنثر إلى الخطبة والرسالة، ثم المقامة في وقت لاحق، أما الرحلة فلا نجد لها ذكرا لدى الناقد العربي القديم، لأنها كانت تنتمي إلى الأجناس السردية، ونعلم أن الأجناس السردية (القصص والحكايات والمقامات...) كان ينظر إليها نظرة تنقصية بالمقارنة مع الشعر الذي عدّ ديوان العرب والذي أُحل الدرجة العليا، ورغم تلك النظرة التنقيصية التي نظر بها إلى الأجناس السردية، إلاّ أنها عرفت نماءً واتساعا، واستطاعت أن تجلب إليها العدد الكبير من القراء والباحثين عن المتعة والإفادة، وقد صنف الباحث شعيب حليفي الأجناس السردية إلى "قطبين كبيرين كان لهما حضور متبادل ومتواتر هما: الشكل الخالص، والهجين[3].

ولأن الخطاب الرحلي على مستوى المضامين يحتوي على معارف متنوعة: تاريخية وجغرافية ودينية وأدبية وإثنوغرافية وعلى مستوى الأشكال نجد فيه السرد والوصف والحكايات والأخبار والرسائل

[1] **محمد حاتمي**، في خطاب أدب الرحلة، مجلة فكر ونقد، عدد 87، السنة التاسعة، مارس 2007، ص ص52، 53.

[2] **أغناطيوس كراتشكوفسكي**، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1987، ص20.

[3] **جميلة روباش**، أدب الرحلة في المغرب العربي، أطروحة دكتوره، تخصص أدب جزائري قديم، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2015/2014، ص11.

والأشعار...، وهذا الغنى والتنوع في المضامين والأشكال يسمح بتشبيه الرحلة، بفناء بيت تنفتح فيه أبواب حجرات متعددة، وكل باب يجد فيه مبتغاه، "إذ تتوفر فيه مادة لا ينضب معينها لا للمؤرخ أو الجغرافي فحسب، بل أيضا لعلماء الإجتماع والإقتصاد ومؤرخي الأدب والعلم والدين واللغويين وعلماء الطبيعة".[1]

تضمنت الأشكال الخالصة: المقامة والسيرة والحكاية الشعبية والرحلات ...أما الأشكال الهجينة فيندرج ضمنها الخبر والمحكيات الصغرى المتفرقة، ثم أدب القيامة، والتراجم والطبقات وأخبار الشعراء[2].

إن أدب الرحلة مرتبط بالتجربة المنجزة من قبل شخص راغب، له من الإمكانات ما يجعله يستفيد من تجارب الآخرين المسموعة والمشاهدة، مع القدرة على ابتكار ما يميّز ذات الرحال أثناء تفاعله مع الحدث والزمان والمكان، على أن تصاغ الرحلة بأسلوب فني ولغة أدبية لتؤدي الوظائف المرتقبة من نص أدبي، إذا فإن أساس أدب الرحلة هو شخص المؤلف، ووصفه لما شاهده ولقيه أثناء رحلته، إضافة إلى ذكره أحوال البلاد التي زارها وعادات أهلها وأفكارهم، حيث يرفق كل هذا بذكر أحاسيسه وعواطفه اتجاهها، ويعبّر عن أفكاره ووجهة نظره الخاصة في كل مسألة، لتبتعد بذلك الرحلة بوصفها أدبا (أدب الرحلة) عن الجغرافيا الوصفية أو التأريخ للأحداث، إلى ضرورة النظر إليها كونها كذلك خطابا اجتماعيا واقعيا أكثر منه خياليا، أو ربما تتفاوت درجة الخيال بتفاوت طبيعة الأجناس المنضوية تحت الرحلة الإطارية[3] التي تلملم شتات الأجناس بشيء من الامتصاص الجزئي حيث تتضافر الأجناس وفق تطريزات وأنسجة تختلف من رحلة إلى أخرى، حيث انتقال الرحالين واختلاطهم بمختلف فئات المجتمع وتفاعلهم مع الأحداث فيه، بل وتسجيلهم انطباعاتهم الشخصية حولها وإصدارهم أحكاما تتوافق واهتماماتهم العلمية ورؤاهم الفكرية ومعتقداتهم الدينية وكل هذا لابد أن يكتب بأسلوب أدبي سواء أحضر عنصر الخيال فيه أم لا، ومن هنا كان لابد للرحال أن ينتقي

[1] **أغناطيوس كراتشوفسكي**، المرجع السابق، ص19.

[2] **شعيب حليفي**، المرجع السابق، ص8.

[3] **تمار هند**، تداخل الأجناس الأدبية في أدب الرحلة، مدونة ابن حمادوش نموذجا، رسالة ماجستير، جامعة غرداية، قسم الأدب العربي، تخصص الأدب العربي قديما وحديثا، 2015/2014، ص121.

الجنس الأدبي الذي يكون خير معبر عن الحدث لما فيه من خصائص وسمات فنية تصف الحدث وتبرز كل تفاصيله حينا، وتستوعب كل تعليقات وانطباعات الرحال حوله حينا آخر، فليس هناك إجابة واحدة لكشف العلاقة بين مبدع الرحلة والواقع الذي يريد التعبير عنه أو عملية الاستقبال التي ينتهي إليها النص الرحلي كنظام معرفي تفاعلي يغذيه تفاعل الأجناس التي تتوسل بأساليب وتقنيات متفاوتة (سرديا، وصفيا، جدليا، تقريريا، خياليا،...).

لقي الأدب الرحلي بهيكله الخاص، ألا وهو المشكل من مقدمة، متن وخاتمة وتعدد موضوعاتها وانفتاحها على جل الأجناس الأدبية رواجا كبيرا منذ عهد مبكر في الدول العربية والإسلامية، فالرحلة من هذا الجانب لا تلغي الحدود بين أجناس الخطاب ولا تجعلها عوائق في الإنتظام ضمن شكل أوسع يحويها جميعها، ألا وهو الخطاب الرحلي بأكمله، حيث أن موسوعية أدب الرحلة واحتضانه لجل الأجناس، ومختلف المعارف والعلوم من تاريخ، جغرافيا، أدب، وغيرها إنما مرده إلى:

– سردها للوقائع والأحداث التاريخية الهامة والمؤثرة على المجتمعات، الماضية منها والحاضرة يجعلها ذات صلة بالتاريخ.

–تعاطيها الأوصاف الدقيقة للفضاءات والأمكنة التي شاهدها الرحالون أثناء رحلاتهم، يجعل لها علاقة بالجغرافيا والبيئة العامة للمجتمعات.

– سردها لجزء من حياة الرحال مع أخبار أهله إن لم يضمنها الرحال سيرته الذاتية، مع ما تحمله من معلومات عن حياة الآخرين ممن لقيهم الرحال أو تتلمذ على أيديهم ومن عاش معهم، يجعل لها صلة وطيدة بالسيرة الذاتية والتراجم وغيرها.

– من ضمن أساسيات أدب الرحلة وقوامها تميز صياغتها بأسلوب فني ولغة أدبية تبدي جماليتها، ما يجعلها ذات علاقة بل وتنتمي للأدب، هذه الصياغة والأسلوب التي تختلف بنيتها شعرا، ونظما ونثرا وسردا، حيث تتنوع الخطابات في البنية الشعرية بتنوع الأغراض، وتتعدد تجاربها بتعدد المبدعين.[1]

[1] **تمار هند**، المرجع السابق، ص ص124، 125.

انطلاقا مما سبق، يمكن لنا الحديث عن الرحلة بعدها جنسا أدبيا قائم الذات له مميزاته وخصائصه واستقلاله الذي يمنعنا من إدخالها ضمن الجغرافيا أو الأدب الجغرافي، أو ضمن التاريخ أو ضمن الإثنوغرافيا أو ضمن الفن القصصي، بيد أنه لا ينبغي أن يفهم من هذا الكلام القول بخلو كتب الرحلات من كل هذه المعارف، لكن وجود بعض المعلومات التاريخية لا يجعلها مؤلفا في التاريخ، ولا وجود بعض الإفادات الجغرافية يجعلها كتابا في الجغرافية وهلم جراً.

III- أدب الرحلة واليوميات والإعترافات:

لقد صوّرت الرحلة الحياة الإجتماعية لشعوب البلدان التي زارها الرحالة في كل أحوال المعيشة، وصورت المحطات الهامة في حياة الإنسان: الميلاد، الزواج والموت، وكل ما يرتبط بهذه المناسبات من مظاهر اجتماعية من بلد إلى آخر، تأكيدا على أن جهد الرحالة وما يرافقها من العادات والتقاليد والبدع التي قد تختلف من بلد إلى آخر،[1] تأكيدا على أن جهد الرحالة لم يقتصر على عمل واحد فقط، لقد كان بمثابة العين التي استطاعت أن تبصر كل شيء على مستوى حياة الشعوب في مستوياتها الفكرية والمادية والروحية، فجاءت الرحلات مصدرا هاما لوصف الثقافات الإنسانية، لذا فإننا نجد الإثنوغرافيا في ثنايا كتابات الرحالة إن لم تكن دراسة الإثنوغرافيا حسب "حسين فهيم" هدفها الأساسي، ومع أن الرحلة أي الإنتقال من موطن الشخص إلى أقطار وبلدان بعيدة تشكل متطلبا رئيسا للدراسة الحقلية الإثنوغرافية، فتكون الرحلة موضوع تجربة التعرف على ثقافة معينة، يضاف إليها الجانب الإثنوغرافي متمثلا في وصف وتحليل وتفكيك هذه الثقافة بنقل أخبار الشعوب وتصوير وقائعهم اليومية في زمان ومكان معين، يتطلبان من الرحالة المكوث لمدة طويلة حتى يتمكن من فهم مختلف التغيرات والذبذبات الثقافية، فيكون الرحالة بصدد الإطار العام لوسائل جمع المادة والتحقق منها، وفي أصول الاتصال المباشر مع الناس والمثابرة في البحث والتفهم لوقائع حياتهم اليومية، وأساسيات منظوماتهم المعرفية بأنفسهم وبالغير، علاوة على عمق تجربة الرحلة وخبرتها، ومدى صقلها للنفس والروح وتأثيرها في الفكر والسلوك[2]، هنا تظهر قيمة الجانب الإثنوغرافي في أدب الرحلة مقترنة بمختلف الآليات والسلوكات التي يجب على الرحالة الاقتداء بها.

وتظهر قيمة الرحلات وما كتب من حيث إنها رصدت تنوع المعالم الحضارية في مختلف الجوانب الحياتية في البلدان التي قصدها الرحالة، وعكست صورة واضحة عن أحوال الشعوب وعاداتها وتقاليدها، قد لا يتمكن من الوصول إليها إنسان عادي أو لا يطمع اطلاقا في التعرف عليها لظروف كثيرة ترتبط

[1] **نوال شوايكة**، أدب الرحلة الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ط1، دار المأمون للنشر، عمان، الأردن، 2008، ص244.

[2] **حسين محمد فهيم**، المرجع السابق، ص ص66، 67.

بالحياة على وجه العموم، ثم إنها كشفت عن الإنتماء إلى ثقافة الذات والفهم لثقافة الآخر والانفتاح عليه مبرزة الترابط بين كل العناصر البشرية والثقافية في البلدان التي زارها الرحالة، فمثلا يظهر لنا ما قدمه الرحالة الجزائري أبو القاسم سعد الله في رحلته إلى المغرب، مبرزا ثقافة كبيرة من خلال آداب الطعام و ألوانه عندهم ومدى حفاوتهم بالضيف وإكرامهم له، كل ذلك عبر بنية سردية يقدم فيها الطعام بأسلوب بسيط في تركيب لغته، يتراوح بين الإخبار والوصف والحقول المعجمية الدالة على ثقافة الطعام في المغرب، فيبدأ بوصف مائدة من موائدهم وجدها دسمة تبدأ بالبسطيلا المسكرة الملوزة، وتثنى لدجاج المحمر المتبل وتنقل إلى الكسكسي المصفر بالزعفران الحرّ والمدهون بأصيل الدهان، وتختم بالفاكهة المنتقاة من خير ما تجود به حقول المغرب المعطاء، منتقلا إلى آداب التعامل مع هذه الجلسة في الأكل الذي تستخدم فيه الأصابع عن الشوك والملاعق وبالجلوس العربي عن الجلوس الأوروبي، وبماء الإبريق عن ماء العين.[1]

[1] **أحمد صانع**، الرحلة: بين الأدبية والإنثوغرافية، مقاربة في نصوص رحلية، دراسات معاصرة، مجلة علمية دولية، المجلد5، العدد2، بوزريعة، الجزائر، 2021، ص ص169، 170.

الفصل الأول

صـــورة الآخـــر فـي أدب الرحلة

تمهيد:

كان الفتح الإسلامي قد بعث الحاجة إلى المعرفة بأمور الأقوام والأقاليم التي أضحت جزءا من العالم الإسلامي الذي امتدت ربوعه رويدا رويدا، فلعب الرحالة دورا هاما في كشف النقاب عن ثقافة الغير.

وبالرغم من اعتراف بعض مفكري أوروبا بتأثير التراث العربي في الحضارة الغربية إلا أنه ساد اتجاه نحو طمس هذه الحقيقة التاريخية أو التقليل من شأنها، وقد زكّى هذا الاتجاه حركة الإستعمار الأوروبي للعالمين العربي والإسلامي، إضافة إلى أن النخبة المثقفة من العرب والمسلمين رأوا في تراثهم عبئا ثقيلا يجب الابتعاد عنه قدر الإمكان ليتمكنوا من الحياة على الطريقة الغربية، ومن هذا المنطلق اتجه الرحالة صوب أوروبا بمحض إرادتهم أو بتكليف من ولاة أمورهم.

المبحث الأول: غايات الرحلة إلى أوروبا

عرفت الرحلة الأدبية العربية خطوة جديدة كانت منعرجا حقيقيا في مسارها عند احتكاك الرحالة العرب بالحضارة الغربية، حيث تفاعل الرّحالون العرب مع الحضارة الغربيّة، ولعلّ هذا مرجعه التطور الحاصل بدول الغرب خاصة بعد الثورة الصناعية، وما نتج عنها من تجديد وتطوير لوسائل العمل، وإنشاء مراكز علمية كبيرة، فلم يعد المهتمون بطلب العلم ينتقلون إلى الشام والحجاز ومصر كما كان قديما، بل أصبح هؤلاء يشدون الرحال نحو البلاد الأوروبية كفرنسا وإيطاليا وانجلترا وأمريكا وغيرها من الدول الغربية ولم تكن الرحلة إلى هذه الأقطار لغرض التعلم فحسب بل خصت كذلك أغراضا شتى سياسية واقتصادية وسياحية واستطلاعية فكانت رحلات العرب إلى الغرب من أهم الوسائل التي عرفتهم بمظاهر الحضارة الأوروبية في القرن التاسع عشر، حيث يقول ابن خلدون: " أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره، وزيه، ونحلته، وسائر أحواله وعوائده، والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال فيمن غلبها وإنقادت إليه".[1]

برزت الرحلة العربية خلال القرن 19م كأحد أهم قناة لمعرفة الآخر واستكشاف تنظيماته ووسائل تدبيره لذاته، ومكامن قوته وضعفه للإستفادة منها عند الضرورة، فهي نتيجة حتمية لمعاينة الرحالة بشكل مباشر لمظاهر المدنية الغربية من مخترعات وعلوم وفنون وأنظمة سياسية حديثة، وذلك بعد أن أتيحت لهم فرصة زيارة أوروبا إما في ظل الرغبة الشخصية في الاطلاع والاكتشاف أو بتكليف من ولاة أمورهم في اطار بعثة دبلوماسية، وتظهر أهمية الرحلة العربية إلى أوروبا في نقطتين أساسيتين: [2]

الأولى تتمثل في كونها تتضمن وصفا يكاد يكون شاملا ومفصلا عن مختلف جوانب الحياة المتقدمة في الغرب حيث إهتمت بالتعريف بأهم منجزات أوروبا الحضارية مبرزة التقدم التقني والعمراني

[1] **عبد الرحمن ابن خلدون**، مقدمة ابن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، 2001، ص184.

[2] **فاطمة الزهراء رحماني، محمد دراج**، الرحلة أداة تواصل بين العرب والغرب الأوروبي خلال القرن19 "الرحلة المصرية التونسية أنموذجا، مجلة دراسات وأبحاث، المجلة العربية في العلوم الإنسانية والإجتماعية، مجلد 10، العدد 4، ديسمبر 2018، 2018، ص69.

فضلا عن أنها اعتنت برصد أوجه النشاط السياسي ومؤسساته القائمة ووظائفه واختصاصه إلى جانب تشريع القوانين دون أن تهمل التنظيمات الإقتصادية، كما لم تخل من وصف العادات والتقاليد الإجتماعية التي سادت الأوساط الغربية وكل ماله علاقة بالنشاط العلمي ومؤسساته، فعبّرت بذلك عن لحظات الإعجاب والإنبهار عند الرحالة العرب لما وصل إليه الغرب من تقدّم في مختلف الميادين.

أما الجزء الثاني فيتمثل فيما تحتويه من تفسيرات وتحليلات فكرية لأسباب الإختلاف بين المنظومة الحياتية للمجتمعات الأوروبية التي زارها الرحالة العرب من جهة والوسط الذي قدموا منه من جهة ثانية فهي تتضمن مقارنات عقدها أصحابها بين ما حققه الآخر من تقدم، وما ينعم به من حريات ورفاهية في مقابل ما تعانيه الأمة الإسلامية من ويلات الحكم الإستبدادي وتدهور أنظمة الدولة، ومنه الدعوة إلى تغيير مظاهر الحياة والمجتمع من خلال الإقتداء بالنموذج الأوروبي وهذا ما لا نجده في الرحلة العربية القديمة.

فقد كانت الرحلات في القرن التاسع عشر مليئة بالرغبة إلى التعرف على الآخر المتفوق وذلك من أجل الإستفادة من تطوره وتقدمه، رأى الرحالة هو يجوب الغرب حضارة ومدنية غير معهودة بالنسبة له ومشاهد ثقافية ودينية مغايرة لتلك التي اعتقدها وآمن بها، فاصطدم بجديد المجسد في الأشكال المادية أو في الفكر المثبوت في الكتب والموسوعات لفقهاء الحضارة والقانون وعصور التنوير الأوروبية، خاصة ما تعلق بالقيم الإنسانية الخالدة من حرية وعدالة ومساواة وتحرر، إذ عمقت النهضة الشعور لدى العربي بأن ما هو حديث مرتبط بغير العرب بطريقة الحياة أو التفكير على حد سواء ومن ثم شكلت مجابهة الغربي المختلف تحديا لدى الرحالة العربي الذي اصطدم بتطور الآخر مما شكل صدمة حضارية لديه.[1]

[1] **فاطمة الغزال**، صورة الآخر في رحلة رفاعة الطهطاوي "تخليص إبريز في تلخيص باريز"، مجلة علمية دولية، المجلد10، العدد02، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، 2022، ص124.

أولا: دوافع علمية

من أهم الرحلات التي قامت في القرن التاسع عشر رحلة "الطهطاوي" إلى "باريس" إذ تعد رحلته "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" الإنطلاقة الحقيقية لتعرف الحضارة الأوروبية، ففي سنة 1826م أرسل السلطان محمد علي والي مصر بعثة علمية للتعلم والإستفادة من فرنسا باعتبارها عاصمة الحضارة الغربية، وقد بلغ عدد المبعوثين 42 دارسا، انضم إليهم آخرون فيما بعد ليصل عددهم 114 طالبا، وقد أرسل قبلهم محمد علي عددا من البعثات ولكن لم تحقق الأهداف المرجوة، لتأتي هذه البعثة وتبعث الأمل في النفوس من أجل تحقيق النهضة العربية إذ تميز طلابها وعلى رأسهم رفاعة الطهطاوي وحصلوا على عدد من الجوائز العلمية في باريس واختلفت تخصصاتهم وتنوعت فدرسوا: الإدارة الحربية، الإدارة الملكية، الهندسة الحربية، علم المدفعية، الكيمياء، وعمليات السبك، الطب البشري، الطب البيطري، علوم البحرية، الرسم، الزراعة، المعادن، الترجمة، اللغة، الحساب، التاريخ، الجغرافيا.[1]

وقد كان الباعث الأول لـ "رفاعة الطهطاوي" خلال رحلته هذه إلى "باريس" هو الرغبة في وصف الأمور التي يراها غريبة خلال سفريته هذه، وأيضا رغبته في حب وتوصية بعض أقارب الشيخ ومحبيه، ولاسيما شيخه حسن العطار الذي كان مولعا بسماع عجائب الأخبار والإطلاع على غرائب الآثار.[2]

إنّ من أبرز ما يبدو من سمات "رفاعة الطهطاوي" في هذه الرحلة حبه الكبير لوطنه "مصر" ورغبته العظيمة في نهضته، ويبدو هذا الحب المقيم في قلبه من خلال الموضوعات التي تعمّد تعريف أهله بها، ومن منهجه الذي اتبعه في المقارنة بين كثير من مشاهداته في أحوال باريس وبين أحوال القاهرة، وحياة المصريين في أيامه.[3]

---

[1] **محمد عمارة**، رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث، الطبعة الثالثة، دار الشروق، القاهرة، 2007، ص51.

[2] **حسين محمود حسين**، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط2، 1403هـ- 1983م، ص69.

[3] **حسين محمود حسين**، المرجع نفسه، ص77.

فلم تقتصر رحلة "الطهطاوي" على ذكر السفر ووقائعه بل شملت أيضا على اللّغة الأدبية حيث حرّر اللّغة العربية من القيود والأغلال بعدما كانت متحجرة ومسجوعة حيث كان أسلوبه التعبيري بسيط لا تكليف فيه ولا تنميق، ويعد كتابه في الرحلة باكورة في النثر الحديث، ذلك الكتاب الذي ذلّل به اللغة العربية لوصف الحضارة الغربية الحديثة، كما أنه استطاع أن يتخلص من السجع المتكلف. والطهطاوي الطالب فقد عاصر فترة اضمحلال تلك الحضارة والرغبة في إصلاح الوضع الحضاري الذي آلت مصر إليه في ذلك الحين.[1]

ثانيا: دوافع سياسية وعسكرية

وكان من الرحالة غير "الطهطاوي" في هذا العصر منهم "محمد عمر التونسي" الذي دوّن كتابا في رحلته "تشحيذ الأذهان" و"محمد عبد الله عنان" و"داود بركات" اللّذان سافرا إلى الغرب، وهذا هو العصر الذي توجهت فيه رحلات العرب إلى أوروبا ودوّنت رحلاتهم ووصفهم فيها بلاد أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، أما الرحالة "خير الدين باشا التونسي" 1820-1890م فقد قام برحلات عديدة لمختلف البلدان الأوروبية ولأغراض شتى سياسية وإدارية منها فرنسا وبلجيكا وإنجلترا وإيطاليا والنمسا والسويد، كما أوجز لنا أخبار رحلته إلى فرنسا التي كانت عام 1853م في كتاب سمّاه "أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك" وكتابه هذا يتضمن الحديث عن تاريخ البلاد الأوروبية وجغرافيته وموقعه ومساحته وأهم ملوكه وتنظيماته السياسية والإدارية والعسكرية، حيث حاول إصلاح الولايات الإسلامية المختلفة وبث روح اليقظة والنهوض فيها.

كما يحدّثنا "خير الدين التونسي" في مؤلفه هذا عن مظاهر الحرية الشخصية والسياسية والفكرية في أوروبا، والتي قضت بدورها على العبودية، محققة مقابل ذلك النهضة والتقدم، كونها أعطت الإنسان حق التصرف في ذاته وكسبه، مع أمنه على نفسه وعرضه وماله، ومساواة لأبناء جنسه.[2]

---

[1] **كمال بن محمد الريامي**، مشاهير الرحالة العرب، كنوز للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، 1434هـ-2014م، ص122.

[2] **خير الدين التونسي**، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، مج1، تح: المنصف الشنوفي، شركة أوريس للطباعة، تونس، ط2، 2000، ص191.

كما قام "أحمد ابن أبي الضياف" و"أحمد باي" برحلة إلى فرنسا عام 1846م مع رجال الدولة بغية الإطلاع على الأنظمة العسكرية على وجه الخصوص وقد دامت الرحلة 26 يوم، استكشف من خلالها مزايا الحضارة الأوروبية ومزاياها، ممّا ساهم في إدراك الفرق الشاسع بين ما وصل إليه الأوروبيين من تقدم في كافة الميادين وما تعانيه الأمة الإسلامية من انحطاط، الأمر الذي دفع "إبن أبي الضياف" إلى الدعوة بالأخذ عن الأوروبيين ومواكبة العصر، ليس هذا وحسب بل كان عاملا أساسيا في المشاركة الفعالة في تجسيد أفكاره الإصلاحية من خلال صياغة "عهد الأمان" 1857م "دستور تونس" 1861م.[1]

ثالثا: دوافع حضارية

الرّحالة "أحمد فارس الشدياق" 1804-1887م الذي أنجز رحلات إلى مالطة وبريطانيا وفرنسا، جمع أخبارها في كتابين سمّاهما "الواسطة في معرفة أحوال مالطة" و"كشف المخبأ عن فنون أوروبا" ولم تكن رحلاته قصيرة المدة بل تعدت سنوات إذ أقام بمالطا أربعة عشر سنة، وأقضى في باريس ولندن أكثر من تسع سنوات، وفي الجزائر تعد رحلتا الجزائريين "سليمان بن صيام" و"أحمد ولد قادي" المنجزتان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والمعنوتان بـ "الرحلة الصيامية" و"الرحلة القادية في تبصير أهل البادية"[2]، وتعتبران هاتان الرحلتان من ضمن الرحلات التي تمثل التوجه الجديد لدى الرحالين في الجزائر، فحاول إظهار الإعجاب والإنبهار الذي صادفهما عند مشاهدة الآثار الحضارية والتمدن في البلاد الغربية.

رابعا: دوافع استعمارية

أما عند الرّحالة الجزائريين فتعدّدت الرحلات نحو فرنسا خلال القرن التاسع عشر وفي مقدمتها اكتشاف الطرف الآخر (أي فرنسا والفرنسيين) وحال التطوّر الذي يعيشه ونقل أخبارهم إلى

[1] **فاطمة الزهراء رحماني**، محمد دراج، المرجع السابق، ص ص72، 73.

[2] **خير الدين التونسي**: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، مج1، تح: المنصف الشنوفي، شركة أوريس للطباعة، تونس، ط2، 2000، ص191.

الجزائر عن طريق الرحالة لكي يتأثر بها الجزائريون، حيث تقول المصادر الفرنسية عندما يسمع الأهالي الحكايات والقصص العجيبة عن مشاهدات الأعيان في فرنسا فإن غيرهم من العرب سيطلبون الزيارة كذلك للإطلاع على هذا البلد الذي انتصر جيشه وحضارته عليهم، ويضيف أبو القاسم سعد الله: "أما الأثر الذي ستحدثه الزيارات على عقول الأطفال الجزائريين أبناء المخلصين لفرنسا، فالمصدر أي حسب ما جاء في السجل 1838م يقول: "أنه سيكون لقصصهم تأثيرا على الآخرين الذين لم يزوروا، وسيطلبون بدورهم الزيارة، وهكذا تسري العدوى ويصبح الحج إلى فرنسا بدل مكة وتتغير العقليات ويحدث التقارب في طريق الإندماج المنشود[1].

ومن دوافع رحلات الجزائريين إلى فرنسا هو حضور بعض التظاهرات في فرنسا كمعرض باريس، فقد كانت السلطات الفرنسية في الجزائر تختار عينات في كل سنة لحضور المعرض الدولي بباريس، وبعض الرحلات الأخرى كان هدفها الحضور لاستقبال قيصر روسيا.[2]

أما "ابن علي الشريف" فكان هدفه الأساسي من الرحلة هو نقل ما وصلت إليه فرنسا والفرنسيون من العلوم، وبالتالي ترغيب أبناء إخوانه الجزائريين للتعلم في المدارس الفرنسية، وبالتالي فدافع الرحلة هو نشرها بين الجزائريين حتى يتأثروا بحال التقدم التي وصلت إليه فرنسا ومن أهدافه كذلك مساعدة فرنسا على تحقيق الأمن والاستقرار في الجزائر وإنهاء الثورات الشعبية التي سماها نار الفتنة.[3]

خامسا: دوافع اقتصادية

استعرض "محمد أمين فكير بك" في رحلته إلى "السويد" كافة جوانب الحياة الأوروبية في أواخر القرن 19، بل قدّم خريطة وصفية ودقيقة للقارئ، ومن الأمور التي أشاد بها وخصص لها جزءا كبيرا هو ذلك التطور الإقتصادي الذي أدركته أوروبا في الصناعة والتجارة والزراعة وفي ما توصلت إليه من اكتشافات واختراعات، بالإضافة إلى إشادته بالمصارف ونظام البورصة والشركات المنافسة

[1] **أبو القاسم سعد الله**، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص201.

[2] **علي تابليت**، خمس رحلات جزائرية إلى باريز، منشورات جامعة الجزائر، الجزائر، د.ط، 2012، ص ص39، 40.

[3] **عبد الحميد عومري**، الرحلات الجزائرية إلى فرنسا خلال القرن التاسع عشر رحلة ابن صيام والرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصرة البادية أنموذجا، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، المجلد التاسع، العدد الأول، 2024، ص191.

الحرة وغيرها وقد نبع ذلك كله من إيمانه بأن النظم الإقتصادية الغربية برهان على رقي أوروبا الحضاري ومن أن تلك النظم ليست بغريبة عن الإسلام واقتباسها يمّكن الشرق من التطور والرقي من غير أن يفقده هويته.[1]

سادسا: دوافع استكشافية

من الرحلات التي يجدر الإشارة إليها نظرا لأهميتها في تعريف العالم الإسلامي من التقدم والتطور الذي وصلت إليه أوروبا، رحلة "محمد عياد الطنطاوي" إلى "روسيا" وبالتحديد إلى مدينة "بطرسبورغ" في النصف الأول من القرن 19م.

فقد ساعد حب الإطلاع والتأمل عند الرحالة في أن يقضي إجازاته متنقلا بين البلدان الروسية، ويطوف المتنزهات والغابات ويحضر الاحتفالات الرسمية والشعبية، وقد ضمّن مظاهر التقدم في كتاب سماه: "تحفة أولي الألباب في أخبار بلاد روسيا" أو تحفة الأذكياء في أخبار بلاد روسيا" 1840-1850م، أين قدّم فيه وصفا تفصيليا لرحلته من القاهرة إلى بطرسبورغ، بالإضافة إلى وصفه لمعالم وثقافة وعادات المجتمع الروسي، فكان بذلك أول من يولي اهتماما في القرن 19م بأوروبا الشرقية مقارنة بالرحالة الذين ظهروا خلال هذه الفترة، والذين اهتموا بإظهار الصورة الجديدة لأوروبا الغربية بعد أن تحددت وجهتهم إليها.[2]

إنّ ما يميّز رحلة "محمد عياد الطنطاوي" إلى "روسيا" احتواءها على دراسة وصفية دقيقة لأوضاع مدينة "بطرسبورغ" من الناحية الجغرافية، إذ فصل في موقعها وخطوط طولها وعرضها وارتفاعها واتصالها بالأنهار، ووصف بناياتها وأشجارها ومياهها وحدائقها ويساتينها وقصورها، كما أفاض في وصف بيوتها الجليدية وتصاميمها، لكن تركيزه انصب حول فترة حكم بطرس الأكبر (1672-1725م) ودوره في نهضة روسيا وتقدمها في المجالات العسكرية والسياسية والإجتماعية والثقافية، من خلال اصداره للعديد من الفرمانات المتعلقة بتحسين وتوسيع وتنظيم المدينة وتنمية

[1] **فاطمة الزهراء رحماني، محمد دراج**، المرجع السابق، ص71.

[2] **محمد عياد الطنطاوي**، رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية 1840-1850 المسماة بتحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا، تقديم: محمد عيسى صالحية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1992، ص14.

العلاقات الخارجية إيفاده للبعثات العلمية إلى أوروبا للإطلاع على تمدنها وتقدمها، وتأسيسه للمكتبات، وإقامته للمسارح والمتاحف وغيرها من الإنجازات ويستمر بعد ذلك في الحديث عن خلفاء بطرس وأعمالهم.

وتكمن أهمية هذه الرحلة أيضا في أنها زودت العرب أو المسلمين بمعلومات إجتماعية للمجتمع الروسي من خلال مشاهداته وخبرته الطويلة، فقد عاش هناك عشرة أعوام سجل على إثرها ملاحظاته بدقة متناهية، ومن الأمور التي وصفها عوائد الروس وأخلاقهم وملابسهم ومساكنهم ودينهم وعادات الزواج والتعميد والدفن ومراسم الولادة والأعياد، فضلا عن دور المرأة في المجتمع، كما وصف وسائل التسلية العامة للناس من رقص ولعب ورق ومسرح وغيرها، وقد أفرد الطنطاوي حيزا كبيرا من رحلته للحديث عن تقدم الروس في العلوم والفنون، مبينا أثرها في انشاء الأكاديميات وتأسيس المدارس، ضف إلى ذلك عرضه لقواعد اللغة الروسية وكيفية الترجمة منها وإليها، وكأنه أراد من خلال ذلك كشف حال اللغة العربية آنذاك في العالم الإسلامي، كما فصل في ذكر المجلات والجرائد التي عرفت عند الروس مثل الجرائد اليومية والشهرية.[1]

سادسا: دوافع شخصية

اشتهرت "رحلة محمد بيرم التونسي" إلى أوروبا والتي كانت لعدة أسباب بين علمية وسياسية، ولكن الدافع الرئيسي في رحلته إلى هناك بغرض التداوي بعد أن أصيب بمرض الأعصاب، وما يثر الإنتباه هو رغم تدهور صحة بيرم إلا أن شغفه لطلب الرحلة بحثا عن الاعتبار لم يفارقه، وقد رافق ذلك الشغف معاينة ميدانية فعلية لحياة الناس في أوروبا، حيث زار بعض البلدان الأوروبية في خمس رحلات (رحلتين لفرنسا، ايطاليا، مالطا، انجلترا).

[1] **حسين الشافعي**، تراث الشيخ محمد عياد الطنطاوي أول معلم للعربية في البلاد الروسية، ط1، أنباء روسيا، القاهرة، 2013، ص26-29.

وتتجلى رحلات "محمد بيرم" في كتاب سماه بـ "صفوة الإعتبار بمستودع الأمصار والأقطار" والذي يقع في خمسة أجزاء" ضمّن فيه آراءه وتحليلاته لواقع بلاده وأوضاع العالم الإسلامي المحيط به، في مقابل نقل انطباعاته عن أحوال الغرب التي عاينها عن كثب.

وقد دعا "محمد بيرم" إلى ضرورة الإقتباس والإقتداء بها وبتحديث الأنظمة بغية اصلاح أوضاع بلده والمجتمعات الإسلامية، وذلك من خلال عرضه لإنطباعاته حول مظاهر العمران والسياسة والثقافة في البلاد الأوروبية، وهذا ما صرح به في كتابه، كما اهتم بالجانب السياسي السائد في فرنسا وايطاليا أين ركّز على الإدارة الداخلية للبلدين، وعرج فيه على ذكر المجالس النيابية وبيّن أنواعها، وبيّن حداثتها ومنها ضرورة الأخذ عنها وتجسيده على أرض واقع المجتمعات العربية.

كما وقف محمد بيرم على المجال الإجتماعي حيث ذكر العادات والتقاليد التي طبع بها المجتمع الإيطالي وركز فيها على تحرر المرأة عندهم، وأما المجال الثقافي فقد رصد المكتبات والمراكز العلمية وأحصى ما فيها من مجلدات وصحف وكتب.[1]

[1] **فاطمة الزهراء رحماني، محمد دراج**، المرجع السابق، ص73، 74.

المبحث الثاني: مفهوم الآخر في الأدب الرحلي

لقد حظي "الآخر"♦ بمفاهيم عديدة واختلف باختلاف الزاوية التي درس من خلالها، فنجد أنه "شاع بوصفه مصطلحا في الدراسات الأدبية المقارنة وفي الإستشراق والخطاب الإستعماري وما بعده"، كما أنه يعدّ المقابل للأنا، فهي تتعرف على ذاتها من خلال الآخر، يشكّل مرآة عاكسة لها، فهي تلاحظ الآخر من جوانب مختلفة، ممّا يشكل صورة لها عن نفسها وعن الآخر، فلا وجود لأنا دون آخر، إذ أنه "مثيل الذات ونقيضها".[1]

أي أن كل آخر هو أنا بالضرورة، ففي الحالة التي تكون بها الذات أنا هي آخر بالنسبة لأنا أخرى، إذ يشابهها في الموقع إن اختلفت الأنا كما يخالفها في جملة من العناصر والسمات.

كما أنه يعدّ مقوما جوهريا من مقومات الذات،[2] فهما متلازمان بغض النظر عن طبيعة العلاقة التي تربطهما، والآخر يعتبر مكونا يسهم في تشكيل الذات، ولا يمكن معرفة ذواتنا دون اللجوء إلى الآخر، فقد تناولته "ماجدة حمود" بأنه: "التخلق في الجنس أو الإنتماء الديني والفكري أو العرقي"[3] فهو "أنا" مخالفة مغايرة في عديدة الجوانب، ذلك الاختلاف هو الذي يحدد بأنه آخر بالنسبة لنا.

وقد تناولته العلوم الإنسانية بالتعريف والتحليل، ففي علم النفس يمثل كل ما هو "خارج عن الذات" في هذا التعريف عدّ الآخر بأنه كل عنصر ليس ضمن الذات فهو مغاير ويشكل "آخر" فالمخالف في العرق آخر وفي الجنس آخر والدين آخر، وهكذا.

♦ **الآخر**: بمعنى كقولك رجل آخر. ينظر: **ابن منظور**، لسان العرب، دار أحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1420هـ/1999م، مادة آخر، وهو: هذا آخر وهذه أخرى، والآخرة، نقيض المستقدم والتقدمة ومقدم الشيء، ومؤخره.
ينظر: **الخليل بن أحمد الفراهيدي**، كتاب العين، تر: عبد الحميد هنداوي، مج1، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424هـ/2003م، ص60.

[1] **إبراهيم خليل الشبلي**، الذات والآخر في الرواية السورية، ط1، دار الفضاءات للنشر والتوزيع، سوريا، 2018، ص16.

[2] **عمرو عبد العلي علام**، الأنا والآخر الشخصية العربية الإسرائيلية المعاصرة، دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1426هـ/2005م، ص12.

[3] **ماجدة حمود**، إشكالية الأنا والآخر نماذج روائية عربية، دار الفنون والثقافة، الكويت، د.ط، 2013، ص17.

وهناك من أعطى مفهوما للمصطلح، فنجد مثلا "فريديك نيتشه" والمعروف بفلسفة القوة، قد حدّد "الآخر" من خلال الاختلاف في القوة "الإرتكاسية" (العبد) مقارنة بالقوى بالناعمة، أي بمفهومه هذا أن القوي يعتبر آخر بالنسبة للضعيف، وأن العبد آخر بالنسبة للحاكم وهكذا، وبقي هذا اللفظ يمثل عديد الفئات والمجموعات، شاملا لكل شيء مغاير، غير محصور في حلقة معينة، فقد يكون صديقا وقد يكون عدوا، تفكر في أنسب الوسائل للتعامل معه.[1]

أولا: تشكيل صورة الآخر ومصادرها

تخضع الصورولوجيا لنمط يعدّ شكلا أوليا لها، ومن العناصر التي تخضع له إما إيجابيا فيعبّر عن الآخر، ويصفه بعيدا عن التنويه، ينقل إلى المتنقل الصورة الحقيقية التي يتميز بها الآخر، مثلما نقل عن الشرق وما يسوده من دفء إنساني وروح الإخاء وإمّا سلبيّا فينقل صورة الآخر مشوّهة، رغم ما يتميّز به من فكر وانفتاح ونضوج، فينقل كل هذا بصورة عكسيّة ويقدمه على أنه متخلّف وجاهل وهمجيّ ليس له حضارة آنفة ولا آنيّة معا. وقد كان للأدباء إسهام كبير في تشكيل صورة أدب أمة ما أو لأمة بذاتها في أدب أمة أخرى، فيكون له بذلك الدور البارز في الكشف "عن طبيعة العلاقة التي تسود بين الأمم والشعوب[2]"وما يربطها من صلات متباينة إما مختلفة وإما متوافقة على حد السواء.

ودون شك أن هذا النقل التصويري لتلك البلاد وما تحويه، لابدّ وأن يكون له صدى ينعكس على بلد الأديب الناقل وفق طريقة وصفه لذلك البلد، فإذا كان الوصف مستوفيا جميع النواحي يكون صدى الإنعكاس إيجابيّ متميّز، أما إذا كان الوصف ناقصا سطحيا يكون للإنعكاس صدى سلبيّا بطبعه، حيث أنّ الصورة التي رسمها الأديب لم تكن مكتملة الجوانب بل مبتورة مثلما هو الشأن بالنسبة للأدباء العرب الذين ارتحلوا وزاروا اسبانيا عن قرب، ولكن لم يروا منها إلا الجانب الإسلامي فظلوا ينتحبون لفقدانهم لها،[3] وربّما هذا ما يجعل الأدب وبخاصة الرحلي منه يشكّل صورة ذات نمطين

[1] **إبراهيم خليل الشبلي**، المرجع السابق، ص18.

[2] **يوسف بكار**، خليل الشيخ، الأدب المقارن، الشركة الوطنية للتسويق والتوريدات، القاهرة، جمهورية مصر العربية، دط، 2009م، ص210.

[3] **محمد غنيمي هلال**، الأدب المقارن، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، لبنان، ط5، 1987م، ص421.

لأي أمة من الأمم ومن بين هذه الأمم الأمة العربية الإسلامية الكائنة بالشرق والتي كوّن الرحالة الغرب صورة نمطية سلبية تختلف عن صورته النمطية الإيجابية التي كونها الرحالة العرب له هو.

وعليه فقد تباينت صورة الغرب في الثقافة العربية واختلفت أشكالها، حيث نجدها تتأرجح بين تيارات ثلاثة: الانبهار بالغرب وقبوله، أو رفضه ومقاطعته مقاطعة كاملة مع غلق كل سبل التواصل، أو التعامل معه بواقعية وفق التفاعل الإيجابي، وتنوعت مصادرها بين المشاهدة والإخبار، والمعاينة، والمعايشة.

أ. **التيار الأول: الإنبهار بالغرب**

حينما تخلّص الغرب من أغلال الكنيسة وسطوتها على الفكر، وتجرّد من سلطة المؤسسة الدينيّة التي قيّدته خلال العصور الوسطى، وتحوّل المجتمع الغربي من مجتمع ديني إلى مجتمع لا ديني تسيّره مبادئ العلمانية وعصر الأنوار.

حينها صار العقل مرتكزا لبناء الأحكام وتفسير الظواهر الإنسانية والمنطق الذي تتأسس وفقه المعارف، فتغيرت الموازين وعادت السلطة إلى الغرب بعد أن كانت في يدّ الشرق لتتوالى بعد ذلك كتابات تنمّ عن الإنبهار بالغرب والرغبة في الأخذ عنه، وتجلّت في إنتاج مجموعة كتاب من أمثال رفاعة الطهطاوي وبيرم التونسي كما ذكرنا سابقا، وأحمد فارس الشدياق وعلي مبارك ونقولا الترك ممّن رأوا في الغرب نموذجا للتمدن والتحضر والعقلانية التي ينبغي الإستفادة منها ونقلها إلى الشرق، فمثلا عبّر "حسين فوزي" عن رأيه حول هذه العلاقة مبرزا إعجابه الشديد بالحضارة الأوروبيّة في كل جوانبها بعد زيارته للعديد من مدنها مثل: برلين، فينيسيا، بريطانيا، باريس، إذ نجده في كتابه "سندباد إلى الغرب" يقول: "الثورة الفرنسية وإمبراطورية نابليون، والجمهورية الثالثة والرابعة، عظيمة في حبها للعلم والتعليم، لا أعرف في تاريخ العالم ثورة كانت ثورة للعلم والمعرفة ومنشآتها كانت جلها للعلم والتعليم، مثل الثورة الفرنسية، ولم يكن نابليون في صميمه إلا إبنا لتلك الثورة".[1]

[1] **حسين فوزي**، سندباد إلى الغرب، دار المعارف، ط3، القاهرة، د.ت، ص176.

وقد صرّح "طه حسين" في ذلك على عظمة هذه الحضارة الراقية، وملّحا على: "أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرّها حلوها ومرّها وما يحب منها وما يكره وما يحمد منها وما يعاب".[1]

ب. التيار الثاني: الرافض

شكل القرن التاسع عشر منعطفا جديدا في الوعي الحضاري الغربي، حيث تم احصاء الدول القوية والمستضعفة فأصبحت إفريقيا وآسيا هدفا للاحتلال، وشعرت الدول الأوروبية بالقوة والتفوق ممّا دفعها إلى البحث عن مناطق جديدة لبسط نفوذها أكثر وتحقيق أهدافها الإستعمارية وبعد اتضاح هذه الأهداف وسقوط بلدان الشرق تحت وطأة الإستعمار الغربي طفت على السطح نزعات الرفض والإنتقاد والكراهية لهذه الغرب، ذلك أن رغبة الآخر في الهيمنة على قاعدة إستراتيجية مبنية على الإحتواء والاحتلال لم تتوقف عند حدود الحوار السلميّ، إنّما تعدته إلى الإحتلال.

ولعلّ هذا ما جعل ثلّة أخرى من الكّتاب والمفكرين العرب تنظر إلى الغرب نظرة مخالفة، إذ رأوا فيه نموذجا للسيطرة والعنف والإستبداد، فتبنى "توفيق الحكيم" موقف رفض الحضارة الغربية من البداية، وكان هذا جليّا بوضوح في روايته "عصفور من الشرق" التي بدا فيها كارها للغرب ونافيا لكل أحواله معظما في الوقت نفسه من قيمة الشرق وتاريخه حيث يقول في هذا الصدد على لسان "إيفانوفيتش"*: "النور يشرق من بلاد الشمس ليغرب في بلاد الغرب"[3] فمن خلال هذا القول نستشف مدى انتصار الحكيم لحضارة الشرق على حساب حضارة الغرب.

وعلى خطى توفيق الحكيم سار "أحمد أمين" فلمسنا في كتاباته رفضه لمحاكاة الحضارة الغربية لما فيها من أغلاط وتناقضات وعدم خلوها من المساوئ، ويصف "أحمد أمين" التناقض الكبير الذي اكتسى حضارة الغرب قائلا: "كم في المدينة الحديثة من متناقضات، يؤلمها الرقيق فتسعى جهدها إلى

---

[1] **طه حسين**، مستقبل الثقافة في مصر، دار المعارف، ط2، القاهرة، د.ت، ص39.

* **إيفانوفيتش**: أحد أبطال رواية عصفور من الشرق لتوفيق الحكيم.

[3] **توفيق الحكيم**، عصفور من الشرق، دار مصر للطباعة، ط1، القاهرة، 1988، ص185.

إلغائه ثم تسترق من الأمم أكثر ممّا تحرّر من الأفراد، تظهر العطف على الشرق وتدعي أن يؤلمها ما تراه متأخرا، ثم تخنق فيه الحرية، وتحجر على التعليم، وتقاوم كل حركة وطنية".[1]

ج. التيار الثالث: اعتدال النظرة وفق التفاعل الإيجابي

رأت مجموعة من الكّتاب بضرورة الوسطيّة والإعتدال في الأمور كلّها قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾[2] وفي هذا السياق نجد "زكي نجيب محمود" في كتابه "تجديد الفكر العربي" يعدّل عن موقفه هو الآخر في نظرته للغرب، إذ كان من أشّد المعجبين بالحضارة الغربيّة ومن أكثر الأدباء انبهارا بها ويبدو أنه بعد تدقيق وتمحيص قد غيّر رأيه مبرّرا ذلك بأنه كان من المتعجلين في الحكم قبل فترة طويلة، مشيرا إلى تعصبّه الشديد سابقا للغرب وحضارته، فاستطاع أن يهتدي إلى جواب بعد عبارة قرأها نقلا عن "هربرت ريد" يقول فيها: "إنني لعلى علم بأن هناك شيئا اسمه التراث" ولكن قيمته عندي هي كونه مجمعة من وسائل تقنية يمكن أن نأخذها عن السلف لنستخدمها اليوم ونحن آمنون بالنسبة إلى استحدثناه من طرائق جديدة...".[3]

وعليه يرى أنصار هذا التيّار ضرورة أن يكون الأخذ من الحضارة الغربيّة مقرونا بالحذر والرويّة دون اندفاع، ودون إهمال للتّراث العربي، عملا بفكرة عدم الإفتتان بالغرب إفتتان المجددين الذين لا يهتمون إلا بالحياة المادية وزخرفها أو جماعة التغريب الذين يقدّسون الحضارة الغربيّة تقديسا مبالغا فيه معتبرينها كل شيء في هذا الوجود ولا بالإنعزال عن العالم المعاصر تسليما بمبدأ التحفظ الجارف إلى أعماق الجهل والتخلّف، لذا يصبح الجمع بين الأصالة (التراث العربي) والمعاصرة (منجزات الحضارة الغربية) حتميا، فنفي الآخر نفيا تاما أو محاولة طمس حضارته يقتضي بالضرورة نفي الأنا وطمسها، فالآخر مكمل للذات وتعدد الذات يوجب تعدد الآخر.[4]

---

[1] **كامل محمد محمد عويضة**، أحمد أمين المفكر الإسلامي الكبير، دار الكتب العلمية، د.ط، بيروت، 1995، ص144.

[2] **سورة آل عمران**، الآية 64.

[3] **زكي نجيب محمود**، تجديد الفكر العربي، ط9، القاهرة، 1993، ص17.

[4] **بن علي الحاج**، تمظهرات الآخر في الرواية المغاربية، أطروحة مقدمة لنيل درجة الماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، 2010/2009، ص6.

د. مصادر أخرى في تشكيل الصورة:

وهناك مصادر أخرى في تشكيل الصورة وهي:

1. الترجمة: عرّف "دانييل هنري باجو" الترجمة قائلا: "هي أن تنقل نصا من ثقافة إلى أخرى ومن منظومة أدبية معينة إلى منظومة أخرى، إنّها نص في سياق آخر".[1]

لذلك تعدّ الترجمة رافدا من روافد الدراسات المقارنة كونها وسيطا هاما في تشكيل الصورة بالنظر على الدور المهم الذي تلعبه في سبيل نهضة الأمم، في تفسير مجال الاحتكاك والتعارف والتحاور والتفاعل، فمن خلالها كان كل شعب يتعرف على آداب الشعوب الأخرى ويستوعبها يطلع على ما في تلك الآداب من أشكال وأساليب وتقنيات وأحاسيس أدبية.

ومن هنا يعدّ المترجم مفسرا لما يجعل منه ناقدا فإن إعادة الكتابة عنده هي عمل تفسير وإعادة التفسير، وهو بدوره يثير أحكام الجمهور على ترجمة النص الأصلي دون شك وعلى الصورة الأدبية والجمالية وحتى أخلاقيات الأدب".

ورغم أن الترجمة هي وسيط هام وجيّد مدّ جسور التعارف بين الأمم، فهي لا قيمة لها لو لم تكن نقيّة ويجب على الباحث أن يراعي ما إن كانت هذه الترجمة كاملة أو ناقصة لأن سقوط بعضها يسقط بعض أثر الكتاب"،[2] وعليه فقد كانت الترجمة قد ساهمت إلى حد كبير في التعريف الشعوب ببعضها البعض، ونجدها قد فتحت قنوات جيدة للاتصال والحوار فيما بينها.

2. الاستشراق: تعود كلمة الإستشراق "orientalisme" إلى لفظ كلمة الشرق "orient" والتي يعود مصدرها للمصطلح اللاتيني " oriens" يعني "الشروق" أو "الشمس الشارقة" أو "الشرق"، إذ ظهر مصطلح الإستشراق في نهاية القرن الثامن عشر وإن كان الإهتمام بالإسلام والحضارة الإسلامية قد نشأ قبل ذلك بعدة قرون في إطار الدراسات اللاهوتية، فنشأت بحوث كانت تهدف للتصدي للإسلام.[3]

---

[1] **دانييل هنري باجو**، الأدب العام المقارن، تر: غسان السيد، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط، د.ت، ص95.

[2] **داود سلوم**، الأدب المقارن في الدراسات المقارنة التطبيقية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 2003، ص26.

[3] **ناجي غويجان**، تطور صورة الشرق في الأدب الإنجليزي، تر: الأصباغ، المنظمة العربية توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص201.

والدراسات الإستشراقية نجدها تأخذ بعدا آخر فقد راحت تخدم مصالح أوروبا خاصة سياستها الإستعمارية، فالحركة الإستشراقية هي تلك الموجة من الوافدين الغربيين الذين اهتموا بدراسة اللغات والمؤلفات والتراث بصفة عامة، إذ بدأت هذه الحركة تحت غطاء ديني مع توالي أفواج الحجيج المسيحيين الأوربيين الذين وفدوا إلى الأراضي المقدسة بغية تعلم لغة الكتاب المقدس، لتطور شكل بارز مطلع القرن السابع عشر مع المستشرقين وجدوا في الثقافة كنزا للمعرفة. فمن يبحث عن الصورة النمطية للاستبداد الشرقي يجدها عند "مونتسكيو"، ومن أراد فهم المكانة التي يشغلها الشرق في رؤيتنا في التاريخ فإنه يقرأ "هيجل" ومن أراد أن يستشعر مظاهر تمزق وترف الشرق فإنه يقرأ "ماسينيون".[1]

فقد نظر كل مستشرق إلى الشرق من زاوية معينة ذات طبيعة مختلفة لها سياسيا أو اجتماعيا، أو ثقافيا إلا أن زاوية النظر سواء كانت ايجابية أو سلبية فإنها تقدم نماذج حسية عن الصورة التي شكلتها الذهنية الغربية عن الشرق وهنا نتكلم عن دور الدراسات الإستشراقية في التعرف بالحضارة العربية الإسلامية، فقد أسهم المستشرقون في كتابة دراسات عن التراث العربي الإسلامي فأخرجوا عشرات المخطوطات واهتموا بالبرديات الغربية ودرسوا ظهور الإسلام وانتشاره وفلسفته، وترجموا القرآن الكريم.

وهناك العديد من المستشرقين الذين اهتموا بالحضارة الإسلامية والأدب العربي، ومنهم من اهتم بما هو عربي في أبعاده المختلفة، الجغرافية والاجتماعية، ومنهم من انحرف بدراسة الشرق وأعجب بها بعد أن زارها واحتك بها مباشرة فتعرض للتخوين من بني جلدته وقومه وهناك من اكتشف الشرق عن طريق الغرب الخالدة في تراثهم وأعاد قراءتها من وجهة نظر خاصة.[2]

[1] **دانييل هنري**، المرجع السابق، ص31.

[2] **المرجع نفسه، ص32**.

ثانيا: علاقة الأنا بالآخر

إن العلاقة بين الأنا والآخر هي واحدة من حتميات هذا الكون وجدت منذ القدم وستظل قائمة إلى الأبد، ولا يمكن إنكارها في حياتنا، مهما تعددت المجتمعات واختلفت الثقافات، وبغض النظر عن عوامل الجنس، العرق، اللغة، الديانة، وغيرها، تعدّ هذه الثنائية عابرة لكل الحدود، بل إنّ ثنائية الأنا والآخر موجودة في الواقع الطبيعي، فكل شيء له ما يقابله، حيث تقوم المجتمعات والدول والحضارات على الاختلاف لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسَ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾.[1]

فقد كان لموضوع العلاقة بين "الأنا" و"الآخر" مكانها البارز في عديد الدراسات والبحوث وللعديد من المفكرين والأدباء والفلاسفة، وفي شتى أنحاء العالم فأمام كل مفهوم يوجد مفهوم آخر وكل جماعة تقابلها جماعة أخرى وكل دين يقابله دين آخر ومقابل كل سلطة هناك سلطة أخرى وكل ثقافة لها ثقافة أخرى وكل لغة تقابلها لغة أخرى.

وعليه ليس لعلاقة "الأنا" "بالآخر" صيغة واحدة علاقة اختلاف في الرؤيا واختلاف في المصلحة واختلاف في الإنتماء واختلاف في الفكر واختلاف في الموقع فالعلاقة بين "الذات" و"الآخر" من العلاقات المركبة على المستويين الفردي والحضاري، فالذات لم تتجاوز حدودها، مهما كان ثراء هذه الذات ومهما حملت من خيرات تظل حاجة كيانية إلى أن تعبر هذه الحدود انطلاقا من احتمالية أن "الآخر" قد يحمل ثراء وخبرة لم تعرفها أو تدركها "الذات" من جهة وأن استمرار الذات في الوجود يعتمد على حد كبير على اختيار ما لدى هذه "الذات" من غنى وخبرة بالتفاعل أو باكتشاف ما لدى "الآخر" من جهة أخرى و"الآخر" بحكم التعريف هو مغاير للذات ويظل منطقة تحتاج إلى الإدراك،[2] و"الذات" لا يمكن أن تكون ذاتا إلا بوجود "الآخر"، إذن هناك علاقة شرطية وجدلية في آن واحد بين "الذات" و"الآخر" وهذه العلاقة غاية في التعقيد حيث يصبح "الآخر" شرطا لتحرر الذات من ذاتية عمياء لا ترى إلا نفسها وربّما لا تراها ومن ثم تحمل نهاية لصيرورتها.

---

[1] **سورة الحجرات**، الآية 13.

[2] **نجم عبد الله كاظم**، نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، دار الفارس، بيروت، لبنان، ط1، 2013، ص39.

إنّ البحث في هذه العلاقة يحتاج إلى نظرة عميقة ومتأنية، فنحن في حاجة إلى النظر إلى هذه العلاقة من منظور ما يحتاجه "الأنا" من "الآخر" ويجوز استيراده والإستفادة منه لأنه لا يضر في الأخذ من الشعوب والحضارات شريطة أخذ ما يفيد وترك ما يضر، لذا فإن إهمال الذات وتجاوز أطرها المعرفية لا يؤدي إلى فهم الآخر فهما دقيقا بل يؤدي إلى الإنبهارية والتلقي الأعمى له،[1] سواء كان هذا الآخر شخصا واحدا أو جماعة أم إلى غير ذلك، إذ لا يمكن لإنسان أن يعيش بمعزل عن الناس الآخرين وبالتالي فهو منصهر في ظروف اجتماعية محددة،[2] فتكون بين الطرفين علاقة أخذ وعطاء.

كما أنه في ظل صورة الأنا والآخر وما بينهما من علاقات نجد أن كلا الطرفين ضروري لتجسيد الآخر إذ أن هناك تلازم بين مفهوم "صورة الذات" ومفهوم "صورة الآخر" فاستخدام أي منهما يستدعي تلقائيا حضور الآخر ويبدو هذا التلازم على المستوى المفاهيمي هو تعبير عن طبيعة الآلية التي يتم وفقا لها تشكل كل منهما، فصورتنا عن ذاتنا لا تتكون بمعزل عن صورة الآخر لدينا، كما أن صورة الآخر تعكس بمعنى ما صورة الذات،[3] فالآخر بمثابة المرآة التي تصوّر لنا ذاتنا كما هي، كما أن ثنائية "الأنا والآخر" لها أثر كبير في نشوء مقومات جديدة وعديدة منها مقومات الأصالة والحداثة والشرق والغرب ونحن والآخر وغيرها.

إنّ هذا الحوار مع الآخر يدعو إلى تعميق إعادة النظر في أهدافه وأساليب إجراءه وهذا الحوار أو الموقف الثقافي الإجتماعي الذي يقبل الآخر ويقرّ بحثه في الوجود والاختلاف والتمايز، ويرفض الصدام مع الآخر على أرضية الواقع والاختلاف،[4] فالواجب على الأنا قبول الآخر مهما كان لونه وجنسه أو فكره ومعتقده وبالتالي هذا الاعتراف بـ"الآخر" ووجوده هو الذي سيضمن التواصل السليم بينهما.

---

[1] **الرشيد بعلي حفناوي**، مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة في ترويض وتقويض الخطاب، دروب للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2011، ص239.

[2] **عدنان يوسف العتوم وآخرون**، التواصل الاجتماعي من منظور نفسي واجتماعي وثقافي، علم الكتب الحديثة، إربد، الأردن، د.ط، 2011، ص9.

[3] **الطاهر لبيب**، الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1999، ص812.

[4] **الرشيد بعلي حفناوي**، المرجع السابق، ص240.

فقد شدّد "ماكس شيلر" على خصوصية معرفة "الآخر" وحصرها في المودة والمحبة بوصفها من المدركات الحدسية المباشرة مع تجاهله للتنوع البالغ والتحلي الملموس الذي يمكن لآخر أن يظهر بها في الواقع الإجتماعي مقابل الأنا، فالعلاقة عنده علاقة مودة ومحبة،[1] فالذات منفتحة على "الآخر" فهو لا يشكل لها أدنى مشكلة بل بعكس ذلك فهو صديق وحبيب، فالآخر أصلا هو طرف أساسي لأن جمهور الإنسان ليس مجردا وكامنا في نفس كل فرد، بل هو في حقيقته نتاج العلاقات الاجتماعية التي يعيش في إطارها. [2]

أما "ماكس" يؤكد أيضا على وجود علاقة بين "الأنا والآخر" ووجود تلازم بينهما هو أنه لا يمكن تعريف الآخر بمعزل عن "الذات" أو "الأنا" الأخرى لأن "الآخر" في المعنى القريب البسيط كل من يقارب "الأنا" و"الأنت" و"النحن"،[3] فصورة الآخر تتكون من نظرة "الأنا" والعكس وصورته تختلف من شخص لآخر وهذا راجع لاختلاف موقف "الأنا" منه.

وهذه العلاقة التي تجلى فيها العرب والغرب، والدليل على ذلك هو أن كل طرف يسعى لإثبات وجوده وتحقيق أناه على حساب الطرف "الآخر" وجعل نفسه مركز الوجود وهذا الصراع هو الذي يسمح له بالبقاء والتطور في نفس الوقت، كما أنه لا يوجد "آخر" من دون الوعي بوجوده، يمكن لهذا الآخر أن يعيش طويلا في بقعة ما أو في زمن ما ولا نشك لحظة في أننا قد نقلناه يوما فيصير "آخر" مقابلا لذاتنا فالعرب المعاصرون لم يصدموا بالآخر الغربي إلا بعد حملة نابليون سنة 1798م، ومنذ ذلك خرجوا عن سباتهم العثماني فأعجبوا بهذا الآخر ثم تقاربوا به وقارعوه وقاتلوه.[4]

ومن خلال كل هذا يمكننا القول بأن العلاقة بين "الأنا" و"الآخر" تتباين وتختلف في كل مرة، وذلك حسب المواقف التي يتفاعلان فيها فعلاقة الإنسان العربي مع الغرب هي علاقة ذات وجهين:

---

[1] **رشيد بعلي حفناوي**، المرجع السابق، ص231.

[2] المرجع نفسه، ص155.

[3] **مي عودة أحمد ياسين**، الآخر في الشعر الجاهلي، رسالة مكملة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية، كلية الدراسات لعليا، إحسان الديك، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، د.ط، 2006، ص5.

[4] **إبراهيم أحمد ملحم**، قراءة الآخر، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2008، ص19.

علاقة كراهية من ناحية وعلاقة حب من ناحية أخرى،[1] فالآخر هنا كان سببا ودافعا في تطوير الأنا بالنسبة "للأنا" التي حاولت أن تصبح مثل "الآخر" من خلال صراعها وفرض هويتها ووجودها والعلو والتفوق عليه، ويمكن القول بأن هذا الصراع هو ما جسدوا وجودها ووعيها.

ومن منظور آخر لا يمكن للذات أن تعي نفسها ووجودها بمعزل عن "الآخر" الذي تعتبره تهديدا على وجودها أو جزءا أما تطورها وبروزها وإدراكها لنفسها لأنه لا يتم الوعي بوجود الذات، كما لا يتم بناؤها وتطويرها إلا من خلال الآخر بإدراكه والوعي به، فتيسر دوره ومفاوضة مكانته، وبالصراع المستمر معا سواء أكان ذلك الآخر حقيقة أم خيالا ومهما كان بعيدا نائيا أو قريبا جوانيا.[2]

إن صورة الأنا في منظور الآخر من أهم المواضيع التي تناولتها الرواية العربية منذ ظهورها في منتصف القرن التاسع عشر ومن ثم فقد كانت تعكس لنا هذه الرواية الحضارية علاقة الشرق بالغرب أو علاقة الأنا بالآخر.

فالعلاقة بين الأنا والآخر تقف بين الإمكانية والإستحالة فقد تكون هناك حقيقة بينهما أو قد تستحيل لعدم توافر الشروط الكافية لقيام تلك العلاقة، ذلك أن الحديث عن الآخر يستوجب اكتشاف الذات أولا، لمعرفة أين تقف هذه الذات مع الآخر أدبيا وحضاريا إنها المكون الأساسي في حركة الفكر والثقافة وهي الأصل والآخر مجرد ظل لهذه الذات، وهو فرع عنها والمنجز لكل تصوراتها إنها أداة توصيف ثنائية الأشياء وعلاقة التضاد القائمة، لذلك كان وسيظل الصراع قائما بينهما، فكما يجب الإهتمام بالذات ومراعاتها عليها في ذات الوقت أن تجد هامشا للتعامل مع الآخر تحت ما يسمّى بفكرة "الغيرية" لذلك لا ينبغي أن يبقى الأنا متعاليا ويرسم في فكره صورة عن الآخر وفق ما يراه هو، لأن العلاقات الإنسانية بطبيعتها قائمة على أساس التغاير لا التمازج ولا نقف دائما على المصالح الذاتية والاعتبارات الخاصة.

[1] **إبراهيم أحمد ملحم**، المرجع السابق، ص102.

[2] المرجع نفسه، ص377.

وبقدر ما يكون الصراع حادا بين الأنا والآخر على مستوى الفعل فإن ذلك ينعكس على الأدب والخطابات الثقافية والفكرية لذلك على الآخر أن يمتلك نوعا من الليونة ويحاور الآخر لإلغاء الحواجز بينهما وتستند على نظرة ايجابية قائمة على التسامح والحوار الحضاري والسلم فيما بينهما، بما في ذلك الانفتاح والاستفادة من خبرته وعلومه وحضارته كما يجب على الآخر أن لا ينظر نظرة دونية لمن يخالفه حضاريا أو دينيا أو اجتماعيا، ويبدو في صورة المضطهد والقامع والمستغل.[1]

ومن خلال هذا يمكن القول بأن أساس الوجود الفعلي والحقيقي للذات مرتبط بوعيها وادراكها لـ "الآخر" قبل وعيها وإدراكها لنفسها، لأنه جزء منها سواء كان هذا الوجود يتسم بعلاقة صراع أم تكامل، أم نفي الوعي والإدراك بـ "الآخر" يؤدي بالضرورة إلى غياب "الأنا" ذاتها، كما تبنى علاقة "الأنا" بالآخر على أساس الإحترام المتبادل لكي يتمكن الإنسان العربي والغربي من التعايش في جو من التفاهم والسلام.

[1] **لويزة جبابلية**، تمثلات الهوية بين الأنا والآخر وفق جدلية المركز والهامش، مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والإجتماعية، المجلد 07، العدد 03، جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي، تبسة، 2023، ص ص6، 7.

المبحث الثالث: المشاهد الإجتماعية والدينية والثقافية للآخر

أولا: المشاهد الإجتماعية

ركزت الرحلات على العلاقة الوطيدة بين المكان والإنسان وتناولتها في كثير من المواضع بالتصوير التفصيلي، فقد أولت أيضا البعد الإجتماعي قدرا كبيرا من العناية والاهتمام أثناء بحثها عن ذاتها من خلال ثقافة الآخر وأسلوب حياته، فرسمت صورا للحياة الإجتماعية، والتأثير الديني الذي كان دافعا عاما اشترك فيه معظم الرحالة، وألقت الضوء أيضا على كل ما لفت انتباه الرحالة من أحوال المعيشة، وما بلغته الحياة من تقدم وتطور في مختلف طبقات المجتمع، وأشارت إلى المحطات المهمة في حياة الإنسان، وكل ما يرتبط بها من مظاهر اجتماعية ومناسبات، وما يتعلق بها من العادات والتقاليد والأعراف التي تختلف من مجتمع إلى آخر بأشكال ونسب متفاوتة إلا أن هذا لا يلغي الخصوصية التي تميز بلد عن آخر في التداول والاستعمال.[1]

وقد كان الرحالة في حديثهم عن حياة الشعوب وعاداتها وتقاليدها وأعرافها وأخلاقها وطريقة لباسها وأحوالها المعيشية، يتجهون إلى استخلاص أسلوب الحياة في البلدان التي قصدوها من خلال استقراء الواقع الاجتماعي والاقتصادي، وتحليل المخزون الفكري والقيمي التي تعمل بدورها على تكوين الأسلوب الحياتي للشعوب وملامح تراثهم القائم في وعيهم وسلوكياتهم ويمثل اللغة المشتركة لدى الجميع.

أ. التقاليد والعادات اليومية والأخلاق:

سجل الرحالة العرب انطباعاتهم العديدة التي اتسمت بالإعجاب تارة وبالإشمئزاز وعدم الرضا تارة أخرى، فأبدى الطنطاوي إعجابه بأهل باريس ويندهش من كثرة المراكز المختصة في مساعدة الضعفاء والمساكين.[2]

---

[1] **بلال سالم الهروط**، صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية، رسالة مقدمة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، الأردن، 2008، ص88.

[2] **محمود فهمي حجازي**، أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي، ط1، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1974، ص285.

كما لفت انتباه رحالي المغرب الأقصى كذلك، ظاهرة التكافل والتعاضد الإجتماعي داخل أوروبا، فأشار الغزال إلى وجود اثنتي عشرة مؤسسة اجتماعية في مدريد وحدها، وتسهر هذه الدور على التكفل بالعجزة والمعوزين وتقدم لهم الخدمات الصحية اللازمة، ولاحظ ان القيمين على هذه المؤسسات يرعون المرضى والعجزة ويحسنون إليهم ويقدمون لهم الأكل والشرب، ويسهرون على تنقية أثواب هؤلاء وتطهير أماكنهم".[1]

أما محمد الحجوي فأبدى إعجابه بالمعاملات التجارية وبتقاليد البيع والشراء في المدن الأوروبية التي زارها في فرنسا وانجلترا فيقول: "يبهت طرفك في نظارة المحل وزخرفته وجمال منظره، ثم في منظر البضاعة وتنسيق وضعها، كل جنس مع جنسه ونوع من نوعه... وإذا نظرت إلى من يبيع وجدته نظيفا ظريفا ذا كسوة جميلة ووجه بشوش وأخلاق كريمة وتربية حسنة وصبر وحذق، فيكون ساحرا لك فتشتري منه رخيصا أو غاليا".[2]

وعبّر "جرجي زيدان" عن أخلاق الإنجليز حيث قال: "أنهم متكبرون يترفعون عن مخالطة سواهم من الأمم، وهي تهمة لا تخلو من الحقيقة، إن الإنجليزي معجب بنفسه يفتخر بدولته وأمته، وينفرد عن سائر الأمم فلا يزاوجهم أو يختلط بهم إلا بما تقتضيه المصلحة التجارية أو السياسية.[3]

على نقيض ذلك يرى الرحالة العرب أن المواطن اليوناني بشوش الوجه، رغم ما يبدو على مظهره من البساطة، فهو سعيد بيومه مستمتع بوقته ولذلك تجد المطاعم والمقاهي والمكتبات والمعارض والمتاحف مكتظة بمن فيها تبدو عليهم كما في مدنهم الأناقة والنظافة وعدم كراهية الغريب.[4]

كما يعتبر الأوروبيين "ليلة السبت" كما عاينها "أحمد زكي" في جميع أسواق "لندن" هي ليلة البهجة والقصوف والفرح وهي أبهج اللّيالي، أما عند العلّية فلعلمهم أن اليوم القابل هو يوم الإنقباض

---

[1] **المهدي الغزال**، نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، تحقيق: اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984، ص154.

[2] **دوحة عبد القادر**، الحياة الإقتصادية والإجتماعية في أوروبا خلال القرن 19م في عيون الرحالة العرب، مجلة الحوار المتوسطي، 2017، ص479.

[3] **كمال بن محمد الريامي**، المرجع السابق، ص156.

[4] **عبد الله بن حمد الحقيل**، رحلات إلى الشرق والغرب، الطبعة الأولى، المملكة العربية السعودية، 1993، ص115.

فينصبّون فيها إلى اللّهو والخلاعة في جميع الأماكن المقصودة وأما عند السفلة والفعلة فلكونهم آخذون أجرتهم في مساء كل سبت فمتى انصرفوا من المشاغل أقبلوا على الحانات والحوانيت لشراء مؤونة يوم الأحد، تبدا احتفالية ليلة السبت بمدن انجلترا وأوروبا عموما منذ المساء، إذ أشار "ليون فوشي" في مؤلفه "دراسات حول انجلترا" إلى حركية مدينة ليفربول ليلة السبت، فتعلوها الضوضاء والجلبة في جميع احياء المدينة تعويضا للصمت المطبق الذي يعيشه سكان المدينة طيلة أيام الأسبوع، حينه يكون الجميع منهمكين بأعمالهم ولا يبالون بأي شيء آخر.[1]

ففي ليلة السبت يغادر الجميع منازلهم بمن فيهم الرجال والنساء والأطفال والنشالون والمومسات ويتجهون صوب شوارع المدينة، فمنهم من يطف أمام المسارح ومنهم من يقصد الحانات، وتفضل بعض النسوة الفرجة على الملابس الفاخرة والأنيقة من خلال ما يعرض في الواجهات البلورية، ومنهن من ينشغلن باستخلاص ديون الأسبوع الفائت واقتناء حاجيات الأسبوع القادم باعتبار يوم السبت هو يوم دفع الاجور، ويتوزع المتسعكون والنشالون وسط المجموعات بحثا عما يمكن أن يحصلوا عليه من جيوب السكارى، وفي منتصف الليل ومع حلول الساعة الأولى ليوم الأحد، ينفض الجميع إلى منازلهم وتسمع دوي ضربات عصيّ الشرطة على قارعة الطريق إيذانا بضرورة استخلاص النفقات والمغادرة إلى البيوت، كذلك كانت مدينة "لندن" التي لا تهدأ من فرط الأشغال الحثيثة في النهار وطالبي التسليّة والسهر في اليل ما استوجب وضع جهاز أمني منظم قادر على تصريف أمور المدينة الأمنية، فقد استرعى انتشار أعوان الشرطة في شوارع المدينة ومحطاتها اهتمام الزوار العرب فانجذبوا إلى حسن هندامهم وكياستهم في معاملة الناس وتوجيه التائهين وحماية الأملاك وفرض الانضباط ما جعلهم يحظون بالاحترام والتقدير عند الجميع.[2]

[1] **زكي أحمد**، السفر إلى المؤتمر، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية، 2000، ص145.

[2] المرجع نفسه، ص114.

ب. العدالة الإجتماعية:

لقد خصّ "خير الدين التونسي" للعدالة الإجتماعية حيزا هاما من تفكيره ونظرته إلى الغرب الأوروبي فاق بكثير ما خصه الرحالة الآخرين إلى هذه القضية، وذلك باعتبار أن "خير الدين" راح يبحث عن منشأ تلك القوانين التي تخلق العدالة، وكيفية تطبيقها والمؤسسات والهياكل التي تتولى ذلك.

لعلّ ملاحظة "خير الدين" الأولى في هذا الجانب انصبت على مملكة انجلترا، التي سجل فيها تلك العلاقة الوثيقة بين استتباب الحياة الاجتماعية وطرق اشتغال المؤسسات القضائية، الاولى طريقة اشتغال المحاكم في حلها للقضايا والمنازعات التي تعرض عليها، وأعتبر "خير الدين" أن حكمها يقتصر على رفع المقدار الحاصل من الضرر أي الحقوق الثابتة، اما الطريقة الثانية فتتمثل في عمل المجالس القضائية والتي قال عنها: "تحكم بأخذ الحذر اللازم منها لعودة المضرة في المستقبل. فاعتبر أن قوة الجهاز القضائي في الدولة بمثابة الحصانة المستقبلية والدائمة للمجتمع من الانحرافات.

كما تعرض "خير الدين" إلى امتداد الجهاز القضائي في عمق المجتمع وتوزعه على كل الولايات ممثلا في محاكمه ومجالسه التي تنتهي جميع أحكامها الصادرة إلى المجلس الأعلى بعاصمة المملكة، وهذا المجلس لا ينظر في القضايا المرفوعة إليه من الناحية الموضوعية وإنما من ناحية تطبيقها للقوانين السارية، وإن اعترض هذا المجلس على قضية من القضايا، تعاد إلى المحاكم للنظر فيها من جديد.

واعتبر "خير الدين" أن ذلك هو الكفيل بتحقيق العدالة بين أفراد الأمة، أما قضية استقلال القضاء عن الدولة أشار إليه عندما زار انجلترا وتجول في محاكمها ومجالسها ولاحظ أن القضاة ورجال القضاء بصفة عامة لا يمكنهم الجمع بين وظيفتين في نفس الوقت، وظيفة القاضي من جهة والعضوية في البرلمان من جهة ثانية.[1]

[1] **دوحة عبد القادر**، المرجع السابق، ص ص480، 481.

ج. اللباس الأوروبي:

يتضح أيضا المظهر الإجتماعي في أوروبا من خلال لباس المرأة والرجل:

1. لباس المرأة الأوروبية: يقول "الطهطاوي" أن ملابس النساء ببلاد الفرنسيس لطيفة بها نوع من الخلاعة، خصوصا إذ تزيّنَ بأغلى ما عليهنّ، ولكن ليس لهنّ كثير من الحليّ فإنّ حليهنّ هو الحلق المذهب في آذانهنّ، ونوع من الأساور الذهب يلبسنه في أيديهن خارج الأكمام وعقد خفيف في أجيادهنّ ولبسهنّ في العادة الأقمشة الرقيقة من الحرير أو البشت.[1]

2. لباس الرجل الأوروبي: حسب "أحمد الشدياق" فإن الرجال في مالطا يثقبون آذانهم ويتقرطون بأقراط من الذهب ويرخون سوالف مجعدة من أفوادهم إلى طلاهمن وهاتان صفتان من صفات الإناث، ويلبسون طرابيش مختلفة الالوان مسدلة على أكتافهم وهي شبيهة بالأجربة، ويمشون حفاة ويتحزمون بأحزمة، ومنهم من يتختم بعدة خواتم من ذهب ويجعل أزرار صدريته منه او من الفضة ويحمل سترته على كتفه ويمشي حافيا مشية المفراح البطر.[2]

د. الأكل والشرب:

وصف "الطهطاوي" نظام المائدة قائلا: "وعادة الفرنساوية الأكل في طباق كالطباق العجمية أو الصينية لا في آنية النحاس أبدا، ويضعون على السفرة دائما قدام كل إنسان شوكة وسكينا، وملعقة والشوكة والملعقة من الفضة، ويرون أن من النظافة أو اللباقة ألا يلمس الإنسان الشيء بيده، وكل إنسان له طبق قدامه بل وكل طعام له طبق وقدام الإنسان قدح يصب فيها ما يشربه من قزازة عظيمة موضوعه على السفرة، ثم يشرب فلا يتعدى أحد على قدح الآخر، فأواني الشرب دائمًا من البلور والزجاج وعلى السفرة عدة أواني صغيرة من الزجاج أحدها فيه ملح، والآخر فيه فلفلن وفي الثالث خردل. كما تنبه إلى عادة التنوع في المائدة وابتداء الطعام بالشوربة، واختمامه بالحلويات أو الفواكه.[3]

---

[1] **فاطمة الغزال**، المرجع السابق، ص124.

[2] **أحمد أبو سعد**، المرجع السابق، ص332

[3] **فاطمة الغزال**، المرجع السابق، ص128.

هـ. الشوارع والمنتزهات والمرافق العمومية:

يرى "أحمد زكي" أن لندن مدينة الأعمال والنشاط الحثيث، وأيضا رمز المدينة النظيفة التي تعنى بتوفير المرافق الصحية لسكانها كالمرفقات والمباول العمومية (دورات مياه عمومية)، في جلّ الأماكن والشوارع، والتي كانت محل إعجاب المصري "أحمد زكي" الذي عاين في جميع المحاط والمتاحف والآثار العمومية والأسواق المهمة والميادين التي بين الشوارع، مرفقات ومباول عمومية بعضها للنساء والباقي للرجال وكلها في غاية النظافة، كما تضاء بالليل بالكهرباء وفيها الماء متساقط بإحكام على الدوام من أحواض، وكثير من هذه المرفقات متسع جدا وينزل إليها بدرج لأنها تحت الأرض وإذا اضطر أحد لقضاء الحاجة ولم يجد المرفق قريبا منه فله ان يدخل في أي دكان "فطاطري"، ويدفع بنسا واحدا للخادم.[1]

كما أولت الحواضر والمدن الأوروبية مكانة قصوى للعناية بالمنتزهات والساحات العامة والشوارع، فهي لم تكن فضاءات للزينة أو مساحات خضراء جعلت بغاية التصدي للتلوث البيئي جراء افرازات المصانع التي استقرت بضواحي المدينة، وإنما أنيطت بها أيضا وظيفة احتضان الزخم البشري وطالبي التنزه بعد فراغهم من أشغالهم وحاجة الجماهير إلى أماكن مهيأة لتوفير المناخات الملائمة للترفيه، توازيا مع التحولات الإجتماعية الكبرى جراء الثورة الصناعية.

ثانيا: المشاهد الدينية

نشهد أن للجانب الديني حظا كبيرا في تقديم الآخر وبوصفه فقد كان اهتمام الرحالة منصبا عليه وإن لاح في الأفق بعض الإشارات التي بثوها في نصوصهم عن بعض العادات الحميدة.

فرأى الرحالة "سليم بسترس" أن الإنجليز يتصفون بحسن التّدين، وهم يحبون الإحسان إلى الفقراء فيعطون كل سنة نحو ثلاثة ملايين ونصف من الليرات، عدا جمعية الصدقة التي تعطى سنويا نحو ستة آلاف ليرة.[2]

---

[1] **زكي أحمد**، المرجع السابق، ص165.

[2] **كمال بن محمد الريامي**، المرجع السابق، ص144.

كما شدد حكام بريطانيا على ترسيخ عطلة يوم الأحد وجعله يوم تفرغ من جميع الأشغال بعد وضع قانون سنة 1860م المانع لجميع الأنشطة في ذلك اليوم بما في ذلك الاحتفالات والمبادلات التجارية، فيوم الاحد هو يوم إقامة الصلوات في مناسبتين واحدة صباحية تدوم ساعتين وأخرى مسائية وتدوم ساعة ونصف حسب ما أكده الشدياق.[1]

ويعتبر يوم الأحد ليس كسائر الأيام الأخرى فهو يتفرد بنسقه المميز، إنه يوم عطلة ويوم تفرغ للعبادة، فيبدأ الإستعدد لعطلة يوم الأحد منذ زوال يوم السبت فيقبل الناس على اقتناء حاجياتهم، ذلك أن انفردت "لندن" عن سائر سكان الأرض بمراعاة الراحة المطلقة في يوم الأحد فهو عندهم يوم مقدس تنقطع فيه الأعمال مرة واحدة، وينقطع الأخذ والعطاء والبيع والشراء حتى فيما يتعلق بالقوت اللازم لحياة النفوس، ومتى أصبح الصباح رأيت المدينة قفرا بلقعا، ليس فيها سوى القليل من رجال الشرطة وبعض نفر منثور في شوارعها، وأما المخازن والأبواب والشبابيك وديار التحف والآثار والتياترات فكلها مغلقة، والعربات بجميع أنواعها يقل وجودها، وكذلك الجمرك فإنه يحجز البضائع وأمتعة المسافرين الذين يقدمون إلى هذه البلاد في هذا اليوم المشؤوم.[2]

كما تميّزت فرنسا بالكنائس والمعالم الدينية، حيث وجد بمدينة باريس سبعون كنيسة وفق إحصاء "أحمد زكي"، وهي متشابهة من حيث الضخامة والهندسة والبناء والتزويق والتأثيث، خضع مجملها لوصف كتابنا واهتمامهم، ومنها كنيسة البيعة المقدسة"، وكنيسة "سنت أوستاش" وكنيسة "سنت جرمان لوكسروا" وكنيسة "سان لويس" وكنيسة "نوتردام" الكنيسة الأكثر جاذبية عند "أحمد زكي".[3]

[1] **عادل النفاتي**، غيرية المدينة الغربية في مدونات الرحلة العربية للقرن التاسع عشر، دورية كان التاريخية، السنة السادسة عشر، العدد الستون، يونيو 2023، ص138.

[2] **زكي أحمد**، المرجع السابق، ص ص140-142.

[3] **عادل النفاتي**، المرجع السابق، ص ص141، 142.

ثالثا: المشاهد الثقافية

عجّت نصوص رحالينا بوصف مختلف المنشآت العمرانية الحضارية الأوروبية التي احتلت مواقع بارزة بقلب المدينة، عاكسة ثراء المخزون العمراني الغربي، فقد عدد الرحالة العرب أمثلة من تلك المنشآت ووصفوها بدقة متناهية، فوجدنا اهتماما بوصف المسارح والمكتبات العامة ودور الطباعة والمتاحف وحدائق الحويانات والمدافن والمقابر والأعمدة والأبواب وأقواس النصر والمدارس والجامعات.

كما تميّزت الذهنية الأوروبية عامة بسعيها إلى حفظ الذاكرة الجماعية والاحتفاء برموزها والاجتهاد في تخصيص فضاءات مهياة لحفظ مختلف الإبداعات والفنون المحلية والعالمية، وعرضها للناس وهي ذهنية لم يعهدها الرحالة العرب في بلدانهم، فمن طبع العرب إجلال تاريخهم الذاتي ورموزهم وأبطالهم وهو ما يظهر في تواتر أخبار الأجداد والأسلاف في الحكاية والقص، ولكنهم يتوجسون تجسيده بمعنى أنهم لم يتعودوا مشاهدة مكونات المتاحف، ما يعلل انبهارهم بمحتوياتها وخصوصا المتاحف الفرنسية والتي حوت أثارا ومحتويات أوروبية وحتى شرقية، ولقد توقف كتابنا عند ضخامة تلك المعالم وزينتها بمختلف الرسوم والتحف والتماثيل التي حملت بصمات عديد الرسامين الفرنسيين او الأجانب المشهود لهم بالكفاءة في ميدان الرسم أو النحت، مما ينبئ بأهميتها وأدوراها التثقيفية في نظر الحكام الغربيين والنخب العالمية.[1]

كما استطاع الرحالة العرب وصف المسرح الأوروبي حيث قالوا: "كذلك يعملوا في الليل لعب ورقصن الرجال والنسوان في بيت كبير، ويعملوا في البيت شيء حتى يبان انه بعيد، وله حمرة مثل حمرة السماء، وناس ماشية وسط الحمرة على نوع الملايكة وكذلك يعملوا في أرضية البيت لوالب خشب، ويغطوها بقماش على لون البحر واللوالب والخشب تدور معه تحتهم حتى تبان أنه مثل مواج البحر، ويمشو فيه شختوره من تحت عجل، ومن فوق تبان مثل الذي هي ماشية على البحر، يوطالعوا فيها مقدار خمسة عشر شب مردا من أحسن الناس، ويطلعوا يعملوا رقص ومحاكاة.[2]

---

[1] **عادل النفاتي**، المرجع السابق، ص142.

[2] **جمال بلعربي**، التعبير عن الأنا من خلال وصف الآخر في أدب الرحلة، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، المجلد 9، العدد 04، الجزائر، 2020، ص ص378، 379.

الفصل الثاني

تجليات صورة الآخر البلقاني

في جنائن الشرق الملتهبة رحلة إلى بلاد الصقالبة

تمهيد:

تنوعت رحلات الأنا "سعيد خطيبي" في رحلته "جنائن الشرق الملتهبة" عبر أماكن مختلفة من بلاد الصقالبة، لينقل لنا صورا مختلفة عن الآخر في بلاد البلقان، لاحظنا أثناء تواجده هناك، متوصلا إلى مظاهر وعادات شتى تختلف عن ذاته وتعكس صورة الأنا العربي من خلال صورة الآخر الغربي، وعلى هذا انطلقت صورة الآخر وحكاياته من أول مكان حط رحاله فيه وهو الرحلة إلى ليوبليانا.

المبحث الأول: الرحلة والرحالة

أولا: التعريف بصاحب الرحلة وأشهر مؤلفاته

أ. التعريف بصاحب الرحلة (سعيد خطيبي):

هو سعيد خطيبي كاتب وروائيّ وصحفيّ جزائريّ، من مواليد 29 ديسمبر 1984م، (بوسعادة) بالجزائر، حصل على ليسانس في الأدب الفرنسي من الجامعة الجزائرية، وأتمّ دراساته العليا في "السوسيولوجيا" في جامعة السوربون عام 2011م.

عمل في جريدة "الجزائر نيوز" حيث أسهم لمدة سنتين في تحرير الملحق الثقافي "الأثر" ثم انتقل إلى جريدة "الخبر"، وهو يكتب باللغتين العربية والفرنسية، واشتهر بتغطية مناطق النزاعات في إفريقيا وأوروبا الشرقية، كما أشرف لسنوات عدة على إدارة تحرير مجلة "الدوحة الثقافية"وهو يقيم ويعمل حالياً في سلوفينيا، كما حصل عام 2012م على جائزة الصحافة العربية.

ب. أشهر مؤلفات سعيد خطيبي:

من أشهر مؤلفاته:

- بعيدا عن نجمة 2009.
- أعراس النار: قصة الرأي 2010.
- رواية أربعون عاما في إنتظار إيزابيل 2016.
- رواية حطب سراييفو 2019[1].
- أما كتاب "جنائن الشرق الملتهبة" فقد صدر له في عام 2015، حصل به على جائزة "ابن بطوطة" للرحلة المعاصرة في دورتها الحادية عشر، والتي تُمنح سنويّا منذ سنة 2003م، ويقدّم الجائزة سنويّا (المركز العربيّ للأدب الجغرافي- ارتياد الآفاق) لأفضل الأعمال المحققة والمكتوبة في أدب الرحلة، وذلك بهدف تشجيع أعمال التحقيق والتأليف والبحث في أدب السفر والرحلات.

[1] **حمزة عمارة، محمد سرير**، السرد الرحلي وتمثلات صورة الآخر في جنائن الشرق الملتهبة رحلة في بلاد الصقالبة لسعيد خطيبي أنموذجا"، المجلد 10، العدد 01، مخبر الدراسات الأدبية والنقدية، كلية الآداب واللغات، جامعة لونيسي علي، البليدة، جامعة يحي فارس، المدية، 2023، ص ص993، 994.

ثانيا: دواعي الرحلة

يجيب "خطيبي" في كتاب يومياته هذا عن سؤالنا الآنف حول وظيفة الرحالة الجديد، وهنا يقول: "رغم ما يفصل بلاد الصقالبة عن بلاد العرب من اختلافات ثقافية، فإن ميزات مشتركة تجمع بينهما، وهو ما لاحظته مع تقدمي في الرحلة والتي حاولت أن أختصرها في هذا الكتاب، كما أني اكتشفت، بعد ثلاثة أسابيع من الترحال، أن السفر لا يقاس فقط بالمسافات، وإنما بالحالات النفسية التي يستشعرها الفرد، والتي تختلف بالإنتقال من مكان لآخر، سواء كان قريبا أو بعيدا، فالسفر الأكبر ليس سفرا في الجغرافيا، بل هو سفر يعيدنا إلى ذواتنا. نحن نسافر لتغيير الأفكار لا لتغيير المكان"، هكذا كتب الفيلسوف الفرنسي "إيبوليت تاين".

ثالثا: أهم محطات الرحلة

يتنقل الرحالة في (جنائن الشرق الملتهبة) عبر "ليوبليانا*، غراد*، زغرب*، سراييفو*، سربرنيتسا*، بلغراد*، كييف*"، وينقل صورا وانطباعات وملاحظات التقطها بالعين والفكر والحواس معا، وهو يكتب بلغة رائقة، ويتصف وصفه وملاحظاته بالدقة والذكاء، وتحمل لغته ملامح من ميول الرحالة القدماء، لكنها أبدا تظل أمينة لإنفعالات اللحظة وتحاول أن تعيد صياغة الأسئلة بوحي من التوق إلى اكتشاف عوالم البشر في أمكنتهم، وتتبع الأحوال والمصائر الإنسانية من جوانب ظليلة وبعيدة عن المسلم به من الأشياء بما يضيف إلى معارفنا وإلى الجمال الأدبي.[1]

---

* **ليوبليانا**: هي عاصمة سلوفينيا وأكبر مدنها. يبلغ عدد سكانها 278.638 نسمة، تقع ليوبليانا في الجزء الأوسط من البلاد.

* **غراد**: (بالبوسنوية: Stari Grad) وتعني "البلدة القديمة"، هي بلدية في مدينة سراييفو عاصمة البوسنة والهرسك.

* **زغرب**: هي عاصمة كرواتيا. قدر عدد سكانها عام 2001 م بحوالي 780 ألف نسمة. ظهر اسم زغرب لأول مرة في 1134م في وثيقة تتصل بإنشاء [أسقفية زغرب] حوالي عام 1094، على الرغم من أن أصول اسم زغرب أقل وضوحا.

* **سراييفو**: هي عاصمة البوسنة والهرسك وأكبر مدنها، تأسست عام 1461.

* **سربرنيتسا**: هي مدينة جبلية صغيرة تقع شرق البوسنة والهرسك، صناعاتها الأساسية هي التعدين وصناعة الملح بالإضافة لوجود عدد من المنتجعات الصحية قريبًا منها. كانت مسرحاً لمذبحة سربرنيتشا الشهيرة عام 1995.

* **بلغراد**: هي عاصمة صربيا وأكبر مدنها على الإطلاق.

* **كِييف**: هي عاصمة أوكرانيا وأكبر مدنها.

[1] **سعيد خطيبي**، جنائن الشرق الملتهبة–رحلة إلى بلاد الصقالبة، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 2015، ص15.

ورؤية سعيد خطيبي لمدينة ليوبليانا عاصمة سلوفينيا، تسترعيه أرصفة الشوارع، وينصت إلى حديثها وشجونها: «صوت خافت يصعد من تحت البلاط، يخاطب المارة، يوشوش في آذانهم، ويحثهم على الإنصات إلى أعماقهم. يجرهم بهدوء إلى خشوع المدينة، وخجلها الإنساني في مصافحة الزائر، وتسترها الرزين خلف صمتها الصاخب»[1].

كما يعترف خطيبي أنه تعلق بسراييفو، ويظن أنه يعرفها ويعرف أهلها قبل أن يزورها أو يفكر بذلك، ويرجع ذلك إلى تشابه الجرح بين الجزائر والبوسنة في الفترة نفسها[2].

زار خطيبي مدينة سربرينيتسا التي وقعت فيها مجزرة على يد الصرب راح ضحيتها 6000 من المدينة وما حولها، ووجدها ما زالت تعاني ظلال المجزرة: «الرتابة سمة من سمات البلدة، رتابة وترقب وضبابية المستقبل... المتسكع في شوارع البلدة الصغيرة يشعر كما لو أنها ملت انتظار التغيير، لا شيء فيها تغير منذ يوم الفاجعة، وتكرار اليوميات يذكرها بألم ليالي صيف 1995م الطويلة. سربرينيتسا اليوم لم تنزع عن نفسها رداء الحداد، كما لو أنها امرأة منبوذة، ولا رثاء لها سوى صلوات المؤمنين ورضاها بالقدر وقناعاتها بأن رب السماوات سيعيد لها بياضًا ضاع منها واعتقدت أنه لن يعود أبدًا»[3].

وعن بلغراد عاصمة صربيا يقول سعيد خطيبي: «في بلغراد... الحب يولد بين جنبات الأحياء الشعبية المزدحمة، وطعم الحياة يزداد حلاوة كلما استعاد الفرد لحنًا قديمًا أو ذكرى من الماضي القريب-البعيد في آن»[4]. أما ليل بلغراد، فهو موحش، مرتبك، يتسربل بالتوتر والقلق والتيه، ومع ذلك فإن «بلغراد المتعبة يبدو عليها استعداد لنفض غبار ما مضى، رغبة منها في إعادة رسم البسمة على وجهها الممتلئ شبابًا، فرغم الأحزان يعيش أبناء المدينة فرحًا بانتصارات رياضية صغيرة.. يرددون أغاني تراثية ويرسلون باقات ورد إلى المستقبل»[5].

---

[1] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص ص25، 26.

[2] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص ص74، 75.

[3] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص ص94، 95.

[4] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص122.

[5] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص ص123، 124.

زار خطيبي كييف عاصمة أوكرانيا في مهمة صحفية إبان الأزمة مع روسيا – بوتين عام 2014، وهناك اختلط بالثوار وتوحدهم وحماسهم في مقاومة التدخل الروسي، ويصور كييف المتقدة بالغضب والقلق والترقب: "الحياة تسير بشكل حذر، خجول... تبدو كييف حكاية ممزقة، تعيش اضطرابًا وشتاتًا داخليين، غير قادرة على استيعاب الصدمات التاريخية المتتالية، والتي تزايدت حدتها في السنوات العشر الماضية..."[1].

ويمثل كتاب جنائن الشرق الملتهبة رحلة إلى بلاد الصقالبة رحلة من أجل بناء جسر للتواصل ما بين الذات والآخر حيث يبدأ مسار الرحلة عند الرحالة أو الكاتب بذكر مجموعة من الرحلات قادته إلى دول أوروبا الشرقية، فيجمع خلال نصه بين سرد الشخوص والاحداث وحتى الانفعالات مع استطرادات تاريخية حول تاريخ الأماكن والبلدان، فتبدأ رحلة "سعيد خطيبي" على متن طائرة من "إسطنبول إلى ليوبليانا" والذي يعنون نص الرحلة بليوبليانا: تمارين على محاكاة الصخب الصامت، يذكر في هذا الفصل بعض الحوارات التي كانت مع سائحة من دول "كازاخستان"، ويمثل الوصف قطعة أساسية في نص الرحلة كون الكاتب غني بالملاحظات الدقيقة، فيحاول ان يقدم كشكولا متنوعا من الاخبار والمعارف نحو الآخر، فنجده يصف الشوارع والمنظر المعماري الباروكي، كما وصف الحياة الاجتماعية للآخر، كما ركز على الأماكن الثقافية كالمكتبات التي تعكس ثقافة الشعوب الأخرى.

أما الرحلة الثانية فقد قادته إلى "غراد" فعنون غراد: الزعيم يقرأ شعرا، يستطرد الكاتب في هذه الرحلة بذكر جوانب من حياة الزعيم "جوزيف بروز تيتو" السياسية والعسكرية والثقافية.

أما الرحلة الثالثة فكانت إلى "زغراب" معنونا هذا الجزء من الرحلة بـ: زغراب: آلهة تتهيأ للرقص فوجد أن ترسبات الماضي عاق في هذه المدينة والتعصب الديني والإنتماء الجغرافي والانقسامات والشروخ التي حدثت مع دول البلقان لا تزال تبعاتها متواصلة إلى اليوم في هذا البلد.[2]

[1] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص140.

[2] **حمزة عمارة، محمد سرير**، السرد الرحلي وتمثلات صورة الآخر في جنائن الشرق الملتهبة رحلة بلاد الصقالبة لسعيد خطيبي أنموذجا، مجلة المدونة، العدد01، المجلد10، 2023، ص ص1000، 1001.

ثم توجه الرحالة إلى سراييفو معنونا نصه الرحلي بـ سراييفو: أمشي خلف ظلي وأردد أنشودة طفولية، فيرى "سعيد خطيبي" أنها وجه مقسم نصفين بين شرق مسلم وغرب مسيحي وما بين الحرب العالمية الثانية ثم الحرب الأهلية تعيش مدينة سراييفو الماضي، فتميزت الرحلة هنا بين الاستذكارات التاريخية واستنطاق صور الحاضر فسراييفو مثّلت جزء من ذاكرة الكاتب لأنها تمثل امتداد لتشابه الظروف والوقائع، فنجد لها حضورا قويا في تمثلات الكاتب، ويرجع سبب تعلق الكاتب بها إلى سنوات الطفولة في الجزائر فيقول: "في سن العاشرة كنا في المدرسة، وفي فرقة الكشافة، نغني لأطفال سراييفو، كنا مثلهم، نعيش على وقع الموت والدم وصور القتل اليومي، ويسرد الكاتب تاريخ الآخر ممزوجا بتدفقات شعورية مؤلمة.

وتستمر الرحلة نحو وجهة جديدة هي بلغراد معنونة بلغراد: اشتراكي يصفق ورأسمالي يرقص، فيرصد الكاتب في بلغراد طبقات المجتمع المتناقضة، من علية القوم إلى أبسطهم، وجوه متعددة وعيون مختلفة تعبر عن تعدد إثني وثراء ثقافي، كما يسترسل في حديثة عن دولة بلغراد فيصور شوارعها ويكشف عوالم الشرق فيها.

ويكتمل عالم جنائن الشرق بالرحلة الأخيرة التي قادت "سعيد خطيبي" إلى كييف وعنون كييف: شفتشبينكو: يلعب الشطرنج، فيقف الكاتب هنا على مظاهر التشتت والفرقة التي سببتها الحروب، فكان شاهدا على تبعاتها على المكان والإنسان فتم الإشارة إلى صور البأس والحرمان، مما جعل كييف تعيش اضطرابا وشتاتا داخليين غير قادرة على استيعاب الصدمات التاريخية المتتالية.[1]

[1] **حمزة عمارة، محمد سرير**، المرجع السابق، ص ص1001، 1002.

المبحث الثاني: المشاهد الإجتماعيّة والدينيّة والثقافيّة للآخر في جنائن الشرق

أولا: المشهد العمراني

أ. القلعة:

تعدّ القلعة أحد أهم الأماكن التاريخية التي تحتل مكانة مرموقة في تاريخ دول أوروبا عموما ودول البلقان على وجه الخصوص، ومن القلاع التي وقف عندها "خطيبي" في هذا الشان قلعة "ليوبليانا" يقول: "ومن الداخل تلتف المدينة حول قلعتها التاريخية والتي نصل إليها بعد قطع نهر "ليوبليانيتسا"... و"ليوبليانا" تتزين لزوارها بتزين قلعتها، مقر لإقامة دوقية "كارنثيا" قديما، والواقعة على ربوة، تسرق انتباه السائح، وتلح عليه بزيارتها، مع انها تبدو من الداخل جد عادية، بباحة واسعة، واعمدة رومانية وفسيفساء مارية متنوعة، بنيت بدايات القرن الثاني عشر، وتحولت في بداية القرن الثمن عشر إلى مستشفى عسكري ثم إلى سجن، ولم تستعد هويتها الأصلية سوى بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، لتتخذ لنفسها بعدا سياحيا وثقافيا بداية التسعينات بعد استقلال سلوفينيا عن يوغسلافيا سنة 1991م، حيث صارت تحتضن نشاطات فنية وأخرى ترفيهية".[1]

نلتمس من خلال وصف "خطيبي" للقلعة التي تشكل أحد أهم الروافد التاريخية للمجتمع السلوفيني أن هذا الأخير مجتمع يحاول أن يحافظ على الهوية التاريخية التي تشكلت مع مرور الزمن، ويرفض أن يفرط فيها، ويحاول في الوقت ذاته أن يتكيف مع المتطلبات والضروريات التي يمليها واقع العصر حيث أنه جعل من القلعة مستشفى عسكريا في عزّ الحرب العالمية ثم سجنا، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها تم تحويلها إلى مزار سياحي، وفي ذات الصدد نستشف أن المجتمع مجتمع برغماتي يبحث عن المنفعة العامة بالخصوص عندما تم تحويل القلعة إلى مقر لمختلف الأنشطة الثقافية لتعود بالنفع من الناحية الاقتصادية، وتحرك عجلة الثقافة التي كانت تعاني من ركود في ذلك البلد الخارج من دائرة الحروب.

[1] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص ص23، 24.

وقد اعتمد "خطيبي" في نقل صورة القلعة على نمط من التصوير والذي يعرف في عرف الرحالة بـ"المشاهدة" والتي تعدّ من أكثر الأنماط موثوقية حيث أنها تعطي مصداقية كبيرة لصورة المسجلة وترجح فرضية قبولها بشكل أكبر لدى المتلقي، فالرحالة في هذه الحال يكون معاينا لما ينقله،[1] وهذا ما يجعل أدب الرحلة من أكثر الأجناس الأدبية التي يمكن ان تلبي متطلبات البحث عن صورة الآخر لأنه ليس بحثا في التاريخ ولا وصفا جغرافيا، كما أنه ليس قصة قصيرة أو رواية أو قصيدة شعر وإنما هو هذا وذاك ومن ثم يكتسب خصائصه المتميزة وطعمه العذب، وقدراته في الوقت نفسه على تلبية مطالب المؤرخين والجغرافيين والأدباء الذين يطمحون لمعاينة الوقائع وسير أغوارها العميقة،[2] هذه الأمور التي تجعل من أدب الرحلة في المرتبة الأولى من الأهمية، لبناء صورة شاملة حول الآخر بالمقارنة مع باقي الأجناس الأدبية الأخرى.

ب. القصر:

يقف "خطيبي" عند أهم القصور التي تشكل المرجعية التاريخية لدول المجتمع البلقاني ويتجلى في قصر "غراد" ويورد المقطع الآتي: "معمار قصر غراد يعود إلى مرحلة فترة النهضة بني عام 1510م، ومرّ عليه قادة الإمبراطورية المجرية–النمساوية... قبل أن يصل إلى "تيتو*" نهاية الحرب العالمية الثانية، يتميز بمخططه رباعي الشكل اعمدته الرومانية الطويلة، واجهته التي تقوم على خط عمودي وسقفه المزين

---

[1] **بلال سالم الهرواط**، صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية، رسالة دكتوراه، إشراف فايز القيسي، جامعة مؤتة، العراق، 2008، ص45.

[2] **خليل عماد الدين**، من أدب الرحلات، دار ابن كثير، لبنان، 2005م، ص6.

* **جوزيف بروز تيتو**: 7 مايو 1892- 4 مايو 1980 كان ثوري عسكري ورجل دولة يوغسلافي من أصل كرواتي، شغل العديد من المناصب منذ عام 1943 حتى وفاته. اعتبر تيتو رئيس المقاومة اليوغسلافية خلال الحرب العالمية الثانية ضد الاحتلال النازي، وكانت المقاومة اليوغسلافية أكثر الفصائل العسكرية نشاطاً في أوروبا المحتلة، وبفضل سياسته الاقتصادية والدبلوماسية الناجحة أصبحت له شعبية كبرى سواء في يوغسلافيا أو خارجها حيث ينظر إليه كرمز توحيدي وبفضل سياسته الداخلية نجح في الحفاظ على التعايش السلمي بين أقليات يوغسلافيا، واكتسب شهرة وسمعة دولية كونه مؤسس حركة عدم الانحياز في الحرب الباردة، كان أحد المؤسسين لحركة عدم الانحياز وبفضل سياسته الاقتصادية والسياسية الناجحة ازدهرت يوغسلافيا اقتصاديا وعسكريا في عهد الستينات والسبعينات،كانت سياسته الداخلية قمع أي حركة قومية تزعزع الوحدة بين دول يوغسلافيا بعد وفاة تيتو عام 1980 تفككت البلاد لعدم وجود قيادة ذات كفاءة مثل تيتو ودخلت يوغسلافيا في سلسلة من الحروب الأهلية والاضطرابات بعد وفاة تيتو بوقت قصير، ولازال تيتو يتمتع بشعبية في دول يوغسلافيا السابقة حتى يومنا هذا.

بمنحوتات في الخارج تحيط بها غابة تتضمن بحسب ما قاله لي مرشد سياحي ما لا يقل عن ثمانمائة نوع نباتي مختلف"،[1] هذا بالنسبة لتاريخية القصر أما من ناحية التهيئة بالتحديد في فترة "تيتو" يقول سعيد خطيبي: "في قصر "غراد" زرت جزءا من حياته الحميمة، خصوصا مكتبته الشخصية، يذكر المؤرخون أن زعيم "يوغسلافيا" كان كلما سمع عن كتاب أو أحبّ كاتبا أمر بترجمته إلى اللغة الصربو-كرواتية، لغته الأم، ولغة البلقان سابقا... على مدخل القصر نزعت حذائي ولبست جوربا استجابة للتعليمات وطفت على مخيلتي أسئلة كثيرة، وعلامات استفهام عن طبيعة مقتنيات "تيتو" الشخصية، مظاهر الترف والبذخ في حياة زعيم عاش ثلاثة عقود كاملة بلا معارضة فعلية... في البداية، خيل لي أني سأدخل بيتا من ذهب وفضة، ولكن بمجرد دخول البهو تغيرت الانطباعات الذاتية، وتلاشت الصور المسبقة والكليشهات، قصر أشهر زعماء العالم الثالث، عراب حركة الإنحياز، لم يكن مكونا سوى من طابقين أرضي خاص بالنشاطات الرسمية وعلوي شخصي يطغى عليه البعد المعماري السلافي، غير المبالغ في تزين الجدران وفرش الأرضية.[2]

من خلال هذا المقطع الوصفي لقصر أحد أعظم الشخصيات التي سجلت اسمها بأحرف من ذهب في التاريخ العالمي عموما والبلقاني على وجه الخصوص، نجد أن "تيتو" إنسان يميل للبساطة، ويرفض كل المظاهر التي تشي بالخيلاء والتكبر، يتوجه للحياة البسيطة، وبالقياس على الكل نلمس أن المجتمع البلقاني يميل إلى طابع البساطة في العيش ولقد اعتمد "خطيبي" في هذا المقام على نمطين من التصوير: حيث جمع بين المشاهدة، وفي المقابل اعتمد على النقل من الكتب أو ما يصطلح عليه بالسماع والإخبار ويأتي هذا النمط تاليا للمشاهدة والمعايشة من حيث دوره في بناء نصوص الرحلات وكذلك من حيث التيقن من مصداقية الخبر،[3] ونستشف من خلال هذا المقطع أن "خطيبي" حاول أن يزاوج بين الرؤية الراهنة والرؤية الماضوية حتى يمنحنا نظرة أوسع عن طبيعة المجتمع البلقاني، وهي نظرة لا محالة تمكننا من فهم طبيعة المجتمع البلقاني عن كثب.

---

[1] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص42.

[2] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص ص37، 38.

[3] **بلال سالم الهرواط**، المرجع السابق، ص51.

ج. المقبرة:

على مدخل المقبرة لافتة كتب عليها: "المقبرة المخلدة لضحايا الإبادة الجماعية التي وقعت في "سيربرنيتسا" و"برتشاري" عام 1995م* بالخطو ثلاث خطوات نحو الأمام بلغني صوت المقرئ "أحمد العجمي" وهو يرتل سورة "مريم"، بالقرب من مكبرات الصوت، حيث تتوالى باستمرار أدعية وسور قرآنية ... نصب رخامي بارتفاع متر ونصف بشكل دائري وبطول 200 متر كتب عليه أسماء حوالي 6000 ضحية من ضحايا جيش صرب "البوسنة"... ثم نرى على مدى البصر قبورا قبورا، لا شيء آخر غير القبور غير رائحة الموت، بقايا وأشباح الآخرة".[1]

* **مذبحة سربرنيتسا** أو **الإبادة الجماعية في سربرنيتسا**: هي إبادة جماعية شهدتها البوسنة والهرسك في الفترة من 11 إلى 22 يوليو 1995 خلال الحرب التي دارت في البوسنة والهرسك، وتُعد أسوأ مذبحة شهدتها أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية .حدثت المذبحة في مدينة سربرنيتسا وقُتل خلالها 8,372 من المسلمين البوشناق مُعظمُهم من الرجال والشيوخ والأطفال الذين تتراوح أعمارهم ما بين 12 و77 سنة.

نفذت المذبحة وحدات من جيش جمهورية صرب البوسنة كانت تحت قيادة راتكو ملاديتش، بمُشاركة وحدة العقارب شبه العسكرية الصربية في أبريل 1993، أعلنت الأمم المتحدة منطقة سربرنيتسا المحاذية لنهر درينا شمال شرق البوسنة والهرسك، أعلنتها منطقة آمنة تحت حماية القُوات الأُممية.

في أبريل 2013، اعتذر الرئيس الصربي توميسلاف نيكوليتش رسميًا عن المذبحة، لكنه تفادى وصف الواقعة بالإبادة الجماعية.

في 8 يوليو 2015، استخدمت روسيا حق النقض، بناء على طلب من جمهورية صرب البوسنة، للاعتراض على قرار للأمم المتحدة يعتبر مذبحة سربرينيتشا إبادة جماعية وصفت صربيا قرار مجلس الأمن بأنه «ضد الصرب»، بينما أكدت الحكومات الأوروبية والأمريكية أن المذبحة ترقى لمستوى الإبادة الجماعية. في 9 يوليو 2015، تبنى كل من البرلمان الأوروبي والكونغرس الأمريكي قرارات تُؤكد من جديد وصف المذبحة بأنها إبادة جماعية .

في 22 نوفمبر 2017، حكمت المحكمة الجنائية الدولية على الجنرال الصربي راتكو ملاديتش بالسجن المؤبد، وأدانته بارتكاب جرائم حرب وجرائم إبادة جماعية خلال حرب البوسنة.

في 23 مايو 2024، وافقت التصويت. ويدين الجمعية العامة للأمم المتحدة على تعيين يوم سنوي دولي للتفكر في الإبادة الجماعية التي وقعت في سربرنيتسا.

صوت ضد مشروع القرار 19 عضوا وامتنع 68 عن القرار بدون تحفظ أي إنكار للإبادة الجماعية في سربرنيتسا ويحث الدول الأعضاء على الحفاظ على الحقائق الثابتة بسبل تشمل نظمها التعليمية لوضع برامج مناسبة إحياء للذكرى ومنع الإنكار والتشويه وحدوث عمليات إبادة جماعية في المستقبل.

[1] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص ص98، 99.

في هذا الوصف نلمس أن "خطيبي" جمع بين المادي والمعنوي أو بعبارة أخرى النفسي حيث نلمس عبق الخوف والرهبة من التاريخ المخيف للمجتمع البلقاني الذي يحاول ان تجاوزه بكل السب الممكنة.

د. صورة الطبيعة:

الإهتمام بالطبيعة في بلاد البلقان أمر ضروري يقول "خطيبي" تمثل 60% من إجمالي مساحة البلد هي فقط غابات، وقطع شجر من دون إذن يعتبر جنحة".[1]

وهذا الأمر يختلف فيه العربي لأن مثل هذا السلوك غير موجود في البلدان العربية، فقد تمنى الرحالة لو طبق هذا القانون على سماسرة المساحات المزروعة في مختلف الدول العربية التي لا ترى فيها اللون الأخضر إلا نادرا.

هـ. المسجد:

يمكن أن يتلمس الباحث في هذه الناحية أشياء كثيرة عن حقيقة المجتمع البلقاني ومدى تفاعله مع المختلف دينيا، حيث تعدّ أهم المعايير التي من شانها إعطاء صورة توضيحية بنسبة كبيرة جدا، ويعطينا الوصف المكاني الذي قدمه "خطيبي" صورة عن تركيبة المجتمع من هذه الناحية، حيث أن المتأمل فيما قدمه "خطيبي" من أوصاف يلمح أن المجتمع في رؤيته نحو الآخر المختلف دينيا خصوصا المسلم مقبولة بشكل كبير، حيث يتجلى ذلك في وصفه المسجد ودوره ومن بين جملة تلك المساجد نجد مسجد "زغرب" حيث يقول: "تبدو صومعة المسجد البيضاء وقبابها الخضراء، والذي كان في الحقيقة مركزا إسلاميا متكاملا، يضم مسجدا ومركزا لتدريس العربية وعلوم القرآن... وأذهب إلى المقصورة لمصافحة الإمام الشاب والتحدث معه قليلا، كان شابا كرواتيا في الثلاثينات في العمر يلبس رداء أسود ويعتمر عمامة تركية سوداء وبيضاء، هنا مفترق طرق مسلمي كرواتيا يأتون للصلاة وللقاء وللتحدث والتعارف أيضا، يقول فالمسجد يقوم بدور محوري في تنظيم حياتهم اليومية وفي رسم معالم حضورهم في المجتمع عموما كما يتكفل بعقد قران المسلمين الكروات وفق التعاليم الشرعية.[2]

[1] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص31.

[2] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص ص66، 67.

فمن خلال هذا الوصف الذي قدمه لنا "خطيبي" حول المسجد من الناحية العمرانية أو من ناحية الدور المنوط به نستشف أن المجتمع الكرواتي متقبل للمختلف عنه ويشكل معه مجتمعا متماسكا ينصهر تحت مظلة الكيان الواحد، ولقد امتزج وصف المسجد بالإعجاب من ناحية البناء أو من حيث الدور المنوط به.

ويتجلى ذلكم القبول في وصف آخر لأحد المساجد حيث يقول: "ففي زيارة إلى مسجد سلطان "فاتحوف" أو "الشيخ المغاربي" وقت الظهر واجهنا التاريخ بكل عراقته، المسجد بُنيّ أيام الباي عيسى منتصف القرن الخامس ميلادي، ليدمر بسبب حريق ويعاد بناؤه عام 1766م، وهو مسجد يتكون من قاعة بشكل مستطيل وقبة ومنارة وأسقطت أيام الحرب عام 1992م، وأعيد بناؤه عام 2000م في حالة من التنظيم الخلاق، دونما أي تجاوزات أو إشكالات".[1]

نستشف من هذا الوصف الذي جمع فيه "خطيبي" بين المادي والمعنوي أن المسجد أصبح بمثابة الشرطي المنظم لحياة الفئة المسلمة، ونستشف من خلال الوصف كذلك أن المجتمع البلقاني يشكل كيان متجانس يحاول التخلص من آثار الحرب التي كادت أن تعصف بوجوده.

و. الكنيسة:

يرصد لنا "خطيبي" في هذا الصدد جملة من الأماكن التي تمثل الديانة المسيحيّة ولقد اتسم تصويره بكثير من الأمانة فصور تلك الأماكن من الناحية الشكلية ومن بعض الجوانب الأخرى التي لها علاقة من مستويات مختلفة بالمكان ومن جملتها الكنيسة على غرار "الكنيسة النيوقوطية التاريخية"* أول ما يواجه الزائر على الجزيرة هو درج طويل يصعد إلى الأعلى تقول الأسطورة أن العريس كان يحمل في الماضي عروسه بين يديه على طول الدرج الكبير ويصعد بها إلى الأعلى ويدقان معا جرسهما إعلانا عن

[1] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص87.

* **الكاتدرائيات والكنائس القوطية**: هي المباني الدينية التي أُنشئت في أوروبا بين منتصف القرن الثاني عشر وبداية القرن السادس عشر. تتميز الكاتدرائيات بسبب ارتفاعها الكبير واستخدامها المكثف للزجاج المعشق الذي يملأ الفراغ الداخلي بالضوء. تميزت الكاتدرائيات أيضًا بكونها أطول وأبرز الأمثلة على العمارة القوطية في عصرها. لم يكن ظهور الكاتدرائية القوطية مجرد ثورة في العمارة، بل قدم أشكالًا جديدة في الديكور والنحت والفن.

ارتباطهما الأبدي، أما اليوم فالجمع تخلى عن تلك العادة ولا أحد صار يزور تلك الكنيسة الخالية من المتعبدين طول الوقت، بعدما تحولت مع محطيها العام إلى نقطة جذب سياحي لا ديني.[1]

من الملامح القليلة التي يذكر لنا فيها عادات وتقاليد المجتمع البلقاني يرصد لنا كذلك "كاتدرائية "سان ميشال" الواقعة بالقرب من السفارة الفرنسية، كان الوقت زوالا واليوم الأحد وفي الداخل عروسان يحتفلان بزفافهما وروائح بخور وورود متناثرة وأدعية متصاعدة من جنبات الكاتدرائية الأربع.[2]

من خلال هذا الوصف الذي قدمه لنا "خطيبي" حول جملة الأماكن التاريخية والدينية "نجد أن المكان الذي ينجذب نحو الخيال لا يمكن أن يبقى مكانا لا مباليا ذا أبعاد هندسية فحسب فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط بل بكل ما في الخيال من تحيز إننا ننجذب نحوه لأنه يكشف الوجود في حدود تتسم بالجمالية، وهذا ما يلمسه المتلقي منذ اللّحظة الأولى حيث يجد أن "خطيبي" نحو تلك الأماكن أنها تشي لها بجملة من الصور التي تتجاوز حدود المكان الهندسي مرورا إلى الوجودي حيث أنه يرى من خلال صورة للمجتمع من نواحي مختلفة، والمتأمل في طبيعة التصوير يجد أن الأماكن في أغلبيتها أخذت تلك القيمة الجمالية[3] وهو ما ينعكس بالضرورة عن صورة رؤية إيجابية عن المجتمع الموصوف.

ثانيا: المشهد الإجتماعي

أ. الأبعاد الاجتماعية:

في هذا المنحنى يرصد لنا "سعيد خطيبي" جملة من الصور السلوكية التي تطبع يوميات المجتمع البلقاني عموما والتي تراوحت بين الايجابية والسلبية.

1. الناحية الإيجابية: تمثلت في

1.1. الأخلاق: يبدو المجتمع البلقاني من خلال الصور التي رصدها المؤلف بأنه مجتمع محافظ من عدة نواحي أهمها: الناحية الأخلاقية، كما ورد في قوله: "كان بعض السواح قد بدأوا في التحلق في

[1] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص ص32، 34.

[2] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص111.

[3] **باشلار غاستون**، جماليات المكان، تر: غالب هسا، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1984م، ص31.

مجموعات، والنزول إلى الماء، جماعة جماعة، مطمئنين حول أغراضهم الشخصية، الموضوعة على الضفة، غير قلقين من إمكانية سرقة حاجاتهم... في بلد يشتهر بكونه واحد من أكثر دول العالم أمنا.[1]

يعد الأمن حاجة أساسية للمجتمع الإنساني، ومؤشرا على الاستقرار والازدهار والتقدم في الوطن، ويرى بعض الخبراء أن الأمن الإجتماعي يعني ببساطة سلامة الأفراد والجماعات من الأخطار الداخلية والخارجية.

فثقافة الأمن، وبناء المجتمعات الحديثة عاملا مهما في تقدم الأمم ورقيها. فالمجتمع الذي يتوافر فيه الأمن والأمان ينعكس ذلك على سلوكياته ومنجزاته ودرجة تقدمه ورقيه حيث إن ذلك يبعث الطمأنينة في النفوس ويشكل حافزا للعمل والإبداع والاستقرار والحفاظ على الهوية الوطنية.

2.1. المجتمع المحافظ: من الصور الإيجابية الأولى التي رصدها لنا "خطيبي" هو الأمن المنتشر بكثرة بين أفراد المجتمع، دونما حاجة لشرطة تضبط أو توجه سلوكهم، وفي ذات السياق يقول "خطيبي": "على خلاف ما نراه في شواطئ مدن أوروبية أخرى، تبدو الحشمة عنصرا مهما في سلوكيات السلوفينيين والسلوفينيات، فالنسوة يسترن أجسادهن ما أمكن قبل النزول إلى الماء، كما لا نجد هناك شواطئ لسباحة العراة،[2] ونستنتج ايضا من هذا القول أن السلوكيات التي تضبط المجتمع البلقاني تتميز في معظمها بالنزوع نحو السلوك المحتشم المحافظ الذي يبرز الوجه العام الذي تسير عليه ضوابط هذا المجتمع، ولا يقتصر على ناحية معينة من الحياة بل يمسّ جميع الجوانب الممكنة، على غرار الممارسات اليومية كالبيع والشراء، مثلما نلمسه في قوله: "كان يجتمع باعة الخضر والملابس والأغراض المنزلية، في سوق شعبية صغيرة مفتوحة على الهواء الطلق، تلتئم في السادسة صباحا، وتنقضي في حدود الرابعة بعد الزوال، ولما يغادر الباعة المكان فلن نجد وراءهم بقايا مرورهم، ولا أكوام قمامات، ... التجارة تخضع لمعايير تنظيمية صارمة والعملية تتم في ظروف نظيفة وصحية، بشكل يحافظ على الوجه الحسن لوسط البلاد،[3] نجد من خلال هذا القول بأن السلوك المحافظ بمختلف معانيه يظهر في جميع الميادين التي تضبط وتنظم سير المجتمع.

---

[1] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص32.

[2] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص34.

[3] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص ص55، 56.

3.1. الرؤية البراغماتية (المادية): في هذا النطاق يرصد لنا جملة من الصور والمشاهد التي تعطينا نظرة عن الرؤية التي توجه سلوكيات أفراد ذلك المجتمع، والتي تتسم بالبراغماتية التي تصب من الناحية الإيجابية حيث ينظر الفرد البلقاني للمعطيات من منطلق المنفعة التي ستجلبها له ولمجتمعه معا، ومن الصور التي قدمها لنا "خطيبي" وتدل على هذا المعطى ما نلمسه في قوله: "ففي أيام زيارتي كانت كرواتيا قد انضمت لتوها للاتحاد الأوروبي...وكان موضوع انضمامها يمثل محور أهم النقاشات والأحاديث في الصحف وفي الشارع، وسألت بالإنجليزية نادل المقهى عن رأيه في القضية، فأجاب وهو يحك ذقنه ويحرك رأسه يمينا ويسارا إن كان الانضمام إلى الاتحاد يفتح فرص شغل جديدة، ويساهم في رفع الرواتب فلم لا؟ هو يربط العلاقة بأوروبا الغربية بتوفر ظروف عيش أفضل، ينظر إلى الأشياء بمنطق براغماتي صائب.[1]

إن سلوكيات المجتمع تضبطها وتوجهها المنفعة العامة والذاتية في نفس الوقت، فالمجتمع البلقاني بقدر أهمية الأمور من منظور الفوائد التي سيجنيها من خلفها، وفي ذات الصدد يرصد "خطيبي" بعض السلوكيات التي تدعم الرؤية البراغماتية التي ينظر من خلالها المجتمع، يتجلى ذلك في قوله: فهم يراهنون، قبل كل شيء على منجزاتهم الشخصية لا على فضائل النظام عليهم، يؤسسون لمشاريعهم الشخصية المستقبلية ويتأففون باستمرار من سياسة الضرائب رغم أنها ما تزال رحيمة وغير منهكة، لكنهم يرون فيها سببا كافيا ومقنعا للانتخاب أو عدم الإنتخاب على برنامج سياسي ما.[2]

من خلال هذا المقطع يعطي "خطيبي" للمتلقي رؤية صورة إيجابية عن المجتمع بأنه مجتمع يعتمد على النفس بعيدا كل البعد عن التبعية وانتظار ما ستنجزه حكومة بلادهم، في المقابل فهو يزن الأمور بميزان الفائدة، حيث أن كل أمر يجلب له ولغيره من أفراد المجتمع فائدة فهو يقبل عليه.

2. الناحية السلبية: تمثلت في

1.2. التفاوت الإجتماعي: في المقابل نلمس بعض الصور غير الإيجابية من ناحية الممارسات الاجتماعية ولعل أبرزها يتمثل في التفاوت الإجتماعي بين قلب المدن وضواحيها حيث يقول: "الصور

[1] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص ص52، 53.

[2] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص71.

التي نعرفها عن قلب زغرب النابض ليست نفسها التي نراها في شوارع المدينة والأزقة الخلفية بين الوسط والضاحية شاسع ونمطا الحياة والمعمار مختلفان أيضا"،[1] نلمس من خلال هذا القول التفاوت بين قلب المدينة الذي يعتبر القلب النابض وفي المقابل إهمال كبير لباقي اجزاء المدينة من جميع النواحي بالأخص النمط العمراني، ولا تعد هذه الخاصية حكرا على مدينة دون سواها بل نلمسها في عديد المدن، على غرار ما يوضحه في قوله وهو يصف مدينة "سراييفو يقول: "خلف أسوار وسط المدينة تبدأ معالم الوجه الآخر من سراييفو حياة بسيطة فقيرة صعبة تعتمد على الزاد القليل للاستمرار في الوجود وراء الوجه المنمق للمركز يغرق الهامش في تناقضات معينة عميقة فمتوسط الدخل لا يتجاوز ثلاثمائة أورو وفرص الشغل والتفكير في تأسيس حياة متنقلة مستقرة للشباب طموحات غير متوفرة وإمكانيات التغير ليست متاحة".[2]

2.2. الفوضى والعبثية: وهو ما يتجلى من خلال قوله "صوب المدينة العتيقة" مرورا بمحطة القطارات والميناء القديم، الواقع على ضفاف نهر الصافا، وبمحطة البنزين حيث التقطت عيني صورة شابة عشرينية يافعة وهي تحاول تنظيم زحمة سيارات متدافعة للظفر بنصيبها من البنزين بأسرع وقت... الفوضى المنظمة صراخ، أصوات أبواق سيارات، حافلات، أناس يركضون، رجال نساء يعبرون الطريق من غير ممّر المشاة.[3]

ومن ضمن الممارسات غير الأخلاقية التي تصب في اطار الفوضى والعبثية المنتشرة في أوساط المجتمع البلقاني نجد انتشار الرشوة التي تنخر وتثقل كاهل المجتمع، وممّا يدّل على ذلك قوله: "الوضع أيام الرئيس الأسبق "يانكوفيتش" 1950م كان بحسب شهادات من إلتقيتهم جدّ سيئ والممارسات اللاقانونية كانت تنخر جسد البلد، كل إجراء إداري عادي كان يستوجب على المواطن دفع مقابل مادي يكون أحيانا باهظان والعلاج في المؤسسات الاستشفائية كان من المفروض ان يقدم خدمات مجانية، يلزم المواطن دفع رشاوى مقابل الحصول على موعد فحص.[4]

---

[1] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص65.

[2] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص87.

[3] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص110، ص111.

[4] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص133.

من خلال هذا القول نجد بأن الممارسات أو الصور غير الأخلاقية، لا تنبع من طبيعة المجتمع البلقاني ولكنه سلوكيات طارئة وجديدة عليه، فرضتها طبيعة الحياة التي يعيشها.

ب. العادات:

عند دخول "خطيبي" "باشتارجيا" توجه إلى أول مطعم هناك حيث جلس وطلب "تشافابتشيشي" وهو طبق محلي يحضر باللحم، وبطريقة تقليدية، ويحشى عادة في خبز محلي يسمى "ليبنيا" ويسميه البعض الآخر "لوبون" ويستحب أن يكون مرفقا بقطع صغيرة من البصل وبهارات، وأحيانا الجبن، و"تشافابتشيشي" تكاد تكون الوجبة السريعة اليومية في البوسنة، وه يحسب "خطيبي" نظير "الكرنتيكا" في الجزائر أو "اللبلابي" في تونس، اكلة شعبية وعنوان هوية المطبخ البلقاني عموما، تحكي بعض المصادر التاريخية أن الأكلة نفسها ظهرت سنوات الحكم العثماني، وتطورت لاحقا على يد الصرب، ثم ترسخت في موائد سكان سراييفو، قبل أن تنتقل لاحقا، بفضل حركة المغتربين، نحو أوروبا الغربية، وتصير متوفرة خصوصا في مطاعم المانيا والنمسا.[1]

ثالثا: المشهد الديني

عند زيارة "خطيبي" مدينة "زغراب" لاحظ أنها تقع في محور الفصل بين كاثوليكي أوروبا الوسطى ومسلمي جنوب شرقي أوروبا، فهي تنبض في الوقت نفسه بالتقاليد الكاثوليكية الكنيسة والعادات الإسلامية الشرقية، بحسب إحصائيات 2011م، فقد بلغ تعداد سكان البلد أربعة ملايين وثلاثمائة ألف نسمة، مقسمة كالآتي: 90.4% كروات، 4.4% صرب، 5.2% من عرقيات أخرى مختلفة، وبالاستناد إلى أرقام رسمية فإن عدد المسلمين يتراوح في حدود الـ 60.000 مسلم أصولهم كرواتية وبوسنية وألبانية وغيرها، وهو ما يعني حوالي 1.3% من إجمالي السكان، وهو رقم ضئيل، لكن حضورهم الاجتماعي واضح ولا يخفى عن العيان.[2]

وبسبب الحرب الصعبة التي عاشها البوسنيون على اختلاف ديانتهم كان لزاما على الدول والمنظمات لفت الإنتباه إلى الحرب هناك عبر تقديم المساعدات فتساءل "خطيبي" عن الكيلومترات التي

[1] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص80، ص81.

[2] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص63، ص64.

قطعها رفقة زملائه لطلب المساعدة لأطفال البوسنة، وأجاب نفسه قائلا: "صحيح أن الملايير أرسلت لكن الغرض منها كان بالغالب بناء مساجد وليس مشاريع"، فالمسلمون يبنون قبابا ومنارات ومسيحيون يردون عليهم بتشييد ما استطاعوا من كنائس والصدام العرقي يترسخ سنة بعد سنة أخرى، فبين مسجد غازي خسرو بيك وكاتدرائية قلب المسيح مسافة بضعة أمتار لا أكثر، وبالقرب منها متحف يهود البوسنة، وهو متحف صغير يضم خصوصا مخطوطات وصورا قديمة تؤرخ للوجود اليهودي في المنطقة، ثلاث ديانات سماوية تجتمع تحت سماء مدينة واحدة في سلام ظاهري وتشنج داخلي وفي الشارع في الحارات والطرقات الرئيسية لا يكاد يظهر الاختلاف العرقي فالحجاب قليل الانتشار بين النساء والتطرف في إظهار رموز مسيحية غير منتشر.[1]

[1] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص86.

المبحث الثالث: الظواهر الفنية والأبعاد الثقافية وعلاقتها بالأنا

أولا: ثنائية التقابل بين الأنا والآخر

أ. فعل الترجمة:

يعتبر فعل الترجمة أحد أهم المرتكزات الثقافية التي يقوم عليها الصرح الثقافي في دول البلقان، وتكمن ضرورة ذلك في الحفاظ على لغته الأصلية من جهة، والانفتاح على مختلف الآداب العالمية من جهة أخرى، وهذا ما يبرزه لنا قول "خطيبي": "كان المحل مكتظا برفوف الكتب مكتوبة باللغتين الإنجليزية والسلوفينية، أما الكتب فكانت كلها بالسلوفينية، ... وقعت عيناي على أسماء "إيميل زولا" "كافكا" "خليو كوتاثر"، "رشيد ميموني"، نعم وجدت كاتبا جزائريا مندسا بين صفوف كتاب عالميين مترجما إلى السلوفينية.[1]

نلمس من خلال هذا أن فعل الترجمة الممارس في المجتمع البلقاني لا يستثني ثقافة معينة دون أخرى، وفعل الترجمة في المجتمع ليس وليد اليوم أو حكرا على طبقة معينة تمارسه فكل الأطياف المكونة لسيرورة المجتمع على غرار الطبقة السياسية مثلما نلمسه مع أحد أبرز الشخصيات في التاريخ السياسي للمجتمع البلقاني يقول: "في قصر غراد زرت جزءا من حياته الحميمة خصوصا مكتبته الشخصية، يذكر المؤرخون أن زعيم يوغسلافيا كان كلما سمع عن كتاب أو أحب كاتبا أمر بترجمته إلى اللغة الصربو-كرواتية لغته الأم ولغة البلقان سابقا،[2] ومن خلال هذا القول نجد بأن فعل الترجمة واكب تاريخ المجتمع البلقاني وسار معه في مراحل تاريخه المختلفة الحقبات، الأمر الذي يجعل منه مجتمعا متجددا باستمرار، فالشعب الذي يستقبل آداب الشعوب الأخرى ويستوعبها لا محال سيستثمر ذلك لإنتاج معارف ذات جودة وتنوع ثقافي تسهم في جعله مجتمعا عالميا مواكب لتطورات العصر،[3] ففعل الترجمة يجعل من المجتمع المستقبل مجتمعا مواكبا لمتغيرات العصر مواكب لمتطلبات الحضارة العصرية.

---

[1] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص ص26، 27.

[2] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص37.

[3] **عبده عبود**، هجرة النصوص دراسات في الترجمة الأدبية والتبادل الثقافي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999، ص6.

ب. فعل الغناء:

يشهد المجتمع البلقاني في ظل الانفتاح على مختلف الحضارات أنماطا مختلفة من الأشكال التعبيرية الوافدة من مناطق مختلفة من العالم، على غرار الغناء المتمثل في نمط الراب القادم على المجتمع من البيئة الأمريكية نلمحه في هذا القول: "إلتقيت باستيان 22 سنة تقدم نحوي ليسلمني بطاقة دعوة لحضور حفلة راب كانت ستقام الليلة ذاتها في المكان نفسه، يشارك فيها رفقة شباب هاو من مختلف أحياء المدينة... ودون مقدمات انخرطت في دردشة مع "باستان" الذي كان يرتدي قميص فريق شيكاغو بولس الأمريكي الأحمر... حيث تحدثنا عن الراب وعن فرقته الفتية،[1] حيث أن المجتمع البلقاني يحاول أن يبقى مطلع على الغرب في جميع الميادين المختلفة فالرقص الممارس من طرف الشباب يدل على أن هذا المجتمع غير منطوي على نفسه متقبل لثقافة الآخر المختلف عنه، وليس لديه أي إشكال في ممارستها أو تبنيها.

ج. البعد اللغوي:

فعلى مستوى التعاملات اللغوية يظهر بأن المجتمع البلقاني مجتمع محافظ متمسك بكل ما يمكن أن يشي بثقافته وقوميته التاريخية ويقول في هذا الصدد "خطيبي": "كما لو أنني أجلس في مدينة متوسطية... قابلتني وجوه هادئة، بعضها أشقر، وبعضها تعلوه مسحة سمراء خفيفة... لولا اختلاف اللغة، وتمسك الكروات بلغتهم الأم بشدة، وتراجع انفتاحهم على لغة الجار المتوسطي إيطاليا، أو لغة المهيمن الأمريكي: الإنجليزية لخيل للزائر أنه في مدينة جنوبي فرنسا،[2] المجتمع البلقاني محافظ على لغته الأم التي تعتبر أحد الأعمدة التي تشكل أبرز مقومات الهوية، وفي ذات الصدد يورد قوله: "لما وصلت بيت تروبار كان الوقت ظهرا، وغالبية النشاطات تقام عادة مساء وكانت لي دردشة سريعة مع موظفة الاستقبال الأربعينية، وفرصة للاطلاع على منشور يعرف بنشاطات المؤسسة المتنوعة والمنفتحة على الثقافات الأجنبية، وقراءة جانب من سيرة الرجل الذي تحمل المؤسسة اسمه "بريـــموش تروبـــار" 1508-1586م رجل دين ونحوي، وواضع قواعد اللّغة السلوفينية، واللغة تعتبر أهم عنصر من عناصر

[1] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص ص29، 30.

[2] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص52.

هوية البلد، ترك خلفه 25 كتابا وترجمة للإنجيل إلى السلوفينية... يعتبر يوم ميلاده 08 جوان عيدا وطنيا، وقطعة واحد أورو تحمل صورته.[1]

من خلال هذا الوصف الذي يقدمه لنا "خطيبي" نجد مقدار الحفاوة التي يحظى بها "تروبار" والذي يعتبر من أحد أهم وأشهر أقطاب الأدب واللغة في المجتمع، فلقد خلّف ميراث معتبر في ميادين متعددة، الأمر الذي جعل منهم يعملون على تخليده في ذاكرة الأجيال المتلاحقة من خلال العمل جعل يوم ميلاده عيد وطني وفي المقابل طبع صورته على العملة الوطنية، يلمس المتأمل لهذا الوصف صورة عامة حول الطابع المحافظ الذي يتميز به هذا المجتمع، وأن اللغة أمر متأصل في تاريخ المجتمع البلقاني لا يعمل على المحافظة عليه وفقط ولكنه يلقنه للأجيال اللاحقة من أجل الاستمرارية، ويستخدم في ذلك وسائل عديدة ومختلفة.

ثانيا: العجائبية والغرائبية

اتخذت مفردة "عجيب" أشكالا في مسارات كثيرة، فـ "ابن منظور" يعرفها انطلاقا من الركام السابق "العُجْبُ" و"العَجَبُ" ما يرد عليك لقلة اعتياده، وأن أصل العجب في اللغة أن الإنسان إذ رأى ما ينكره ويقل مثله قال عجبت من كذا..."[2].

أما "القزويني" يعرف العجب بأنه: "حيرة تعرض للإنسان لقصوره عن معرفة سبب الشيء أو عن معرفة كيفية تأثيره فيه".[3]

أما "تودورق Todorogue" الذي حاول تقديم خلاصات دقيقة فيعرف العجائبي بحدوث أحداث طبيعية وبروز ظواهر غير طبيعية خارقة مثل نوم أهل الكهف، تكليم الحيوانات، المشيء فوق الماء...، وتنتهي بتفسير طبيعي.

---

[1] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص280.

[2] **ابن منظور**، لسان العرب، ج11، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص ص69، 70.

[3] **زكريا القزويني**، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ط5، مصر، مكتبة البابي الحلبي وأولاده، 1980، ص5.

وتكمن أهمية العجائبي في ارتباطاته المتعددة وفي مفاهيم أخرى ترسم أفقه وتشكلاته الدلالية، من أهمها وأشدها التصاقا به مفهوم الغربي والغرائبي، حتى أن استعمال العجيب يجيء عادة مقترنا بالغريب بشكل طبيعي، وكأنهما شكلان للإنفعال الذي يولده موقف أو مشهد ما.[1]

ومفهوم "الغريب" هو أيضا أحد المفاهيم التي وقف عندها الباحثون بشكل كبير فالقزويني يعرفه في المقدمة الثالثة بأنه: "كل أمر عجيب قليل الوقوع مخالف للعادات المعهودة والمشاهدات المألوفة، وذلك إما من تأثير نفوس قوية أو تأثير أمور فلكية أو أجرام عنصرية، كل ذلك بقدرة الله تعالى وإرادته...".

هذا التحديد هو من أجل استيضاح الفرق بين الغريب والعجيب وإقامة فواصل مضبوطة، فالغرائبي هو حدوث أحداث فوق الطبيعية تنتهي بتفسير طبيعي، في حين أن العجائبي هو حدوث أحداث طبيعية تنتهي بتفسير فوق طبيعي.[2]

فإذا ما جئنا لرحلة "الخطيبي" نرى أن ما لفت انتباه اختلاف قصر تيتو عن قصور الزعماء العرب، والذيّ كسر كل ما كانِ يحمله الكاتب من تصورات مسبقة، واهتمام الزعيم "تيتو" بالقراءة مقارنة مع الزعماء العرب وهو ما كان صادما بالنسبة إلى الكاتب.

وأثناء تجوال "الأنا سعيد خطيبي" في المدينة لمح مؤسسة ثقافية مكتوب عليها بالأحمر والأسود "بيت ثروبار الأدبي" فدخلها وأعجب بقاعاتها التي تقام فيها مختلف النشاطات الأدبية والفنية مزينة جدرانها كما قال: "بلوحات ومنحوتات بشكل أضفى على المكان كثيرا من الدفء والحميمية".

والشيء العجيب الذي شدّ ذات الأنا "سعيد خطيبي نحو الآخر وهو كيف يقدس السلوفينيون مثقفيهم وأدبائهم، لأن هذه المؤسسة تحمل اسم أحد النخبة المثقفة "بريموش ثروبار".

كما تعد نقطة اختلاف بين "الأنا العربي سعيد خطيبي الجزائري" و"الآخر السلوفيني الغربي" بحيث تقام الاحتفالات في بلاد الأنا "سعيد خطيبي" بذكرى الرؤساء والزعماء والدكتاتوريين كما قال:

[1] **شعيب حليفي**، المرجع السابق، ص424.

[2] **زكريا القزويني**، المرجع السابق، ص9.

"ونرصع مداخل المدارس والمطارات والشوارع بأسمائهم نحتفي بهم في الحياة وبعد الممات، ونجعل منهم رغم أنف التاريخ أيقونات تنغص على المواطن العربي البسيط يومياته وتتبعه في نومه ويقظته. [1]

مشهد آخر من قلب المدينة يشد نظر الأنا "سعيد خطيبي ويصدمه بالآخر السلوفيني وهي أثناء مشاهدته لفتاة لم تبلغ سن النضج لكنها حامل تمشي ببطء منتفخة مرتاحة البال مرتدية شورت جينز وقميصا أزرق فضفاضا، هذه الصورة شكلت صدمة بالنسبة للأنا"سعيد خطيبي" وظلت في ذهنه أشهرا طويلة فهو لم يعتد رؤية ذلك في بلده الجزائر العربي. [2]

كما حدثنا "خطيبي عن بعض المظاهر التي شاهدها في العاصمة السلوفينية وهي حضوره لحفل راب الذي أقيم في حيّ "ميثيلوكا" الذي تحول من حي عسكري بعد استقلال سلوفينيا إلى مركز ثقافة، يعكس هذا الأمر اهتمام السلوفينيين بالمظاهر الثقافية كالغناء والموسيقى والفن بصفة عامة ومدى تفاعل اتباع ذلك معه، عكس الأنا العربي الذي لا يعطي اهتمام لهذه الأمور وذلك لعدة أسباب. [3]

ومظهر آخر شدّ "خطيبي" للبلقان وتحديدا إلى متاحف وقبور زعماءها قال: "في الحقيقة لم أتوقع أن أجد ضريح الرجل الأقوى تاريخيا في البلقان بتلك البساطة فقد كانت تدور في ذهني صور مختلفة وتوقعت أن أجده ضريحا بمقاسات إمبراطور عظيم لا يموت، وزعيم شعبي لم يحكم أحد مثله يوغسلافيا سابقا".

ثالثا: المفاضلة والتضاد

كانت الرحلة ومازالت من أبرز وسائل التواصل مع الآخر أينما وجد، فهي المنفذ الفعلي لعبور الحواجز التي يعتقد أنها موجودة في اجتياز الجسور الموصلة إلى فكر الآخر ومنهج حياته بكافة مكوناته، فهي الحقيقة التي نسخت كثيرا من الأحكام المسبقة والتصورات التقليدية المتمركزة حول نواة فكرية واحدة إما دينية أو عرقية أو قومية...الخ وعلى الرغم من ذلك فإن الرحلة إلى الآخر والرغبة باستكشاف تفاصيله التي طالما تولدت في مخياله لم تلغ في ذات الرحالة نوازع المفاضلة[4] فعند زيارة "خطيبي" لمسجد سلطان فاتحوف أو الشيخ المغاربي" لاحظ سعيد خطيبي أمرا يشبه ما لاحظه في زغراب وهو أن الصلاة

[1] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص28.

[2] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص29.

[3] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص34.

[4] **بلال سالم الهرواط**، المرجع السابق، ص129.

تجمع الرجال وخلفهم النساء دون أي عازل أو حجاب وذلك لأمر وهو أن سنوات الحرب زرعت في نفوسهم روح التكافل والشعور بالآخر، مما جعل مسلمي البوسنة كروح واحدة على خلاف ما نراه في الدول العربية فقد نجد مسجدا ضخما بأبواب ومساحات واسعة وبأماكن متفرقة رجال على جهة ونساء في جهة أخرى لكن ربما يصعب علينا الجمع بينهم، فقد لا نجد روح التسامح ولا نستطيع أن نعزز التواصل الاجتماعي بينهم.[1]

نقطة أخرى كشف عنها "خطيبي" وهو أن الآخر "الصرب" لا يتعاملون مع البوسنيين وذلك للخلافات السياسية فأثناء طلبه من موظفة في وكالة البنك الصربي أن تغير له بعض أوراق ماركا بوسنية مقابل دينار صربي وكيف نظرت باستحقار وكره.[2]

وبين كل هذه البلدان وعند تجوال الأنا "سعيد خطيبي" في المنطقة استحضر لنا شيئا وهو أن الآخر هنا عاش نفس معاناته أي سنوات الجراح والحرب، وهذا هو الشيء الذي يجمع بين بلد الأنا (الجزائر) والآخر (سراييفو) لأن هذه الأخيرة كما قال خطيبي: "ومن بين كل مدن البلقان سراييفو قطعة من القلب، وذلك راجع لتاريخ المنطقتين، فالأنا "خطيبي" يشبه الآخر "سكان سراييفو" وهذا أمر طبيعي لأن ما حدث في سراييفو حدث مثله في الجزائر.

رابعا: لغة وأسلوب خطيبي في الرحلة (تمثلات الآخر)

عبر استحضار الآخر في رحلة جنائن الشرق الملتهبة، جوهر المادة الحكائية باعتبار الآخر يمثل داخل الرحلة هوية مغايرة، نتجت عن طريق أشكال المثاقفة بين الأنا والآخر، وما نتج عنها من افرازات ثقافية، تعبر عن حضور الآخر داخل النص الرحلي، من زوايا مختلفة فرضتها سياقات المسار السردي للرحلة، أو الرغبة التي تتحكم فيها ذاتية الكاتب في الإخراج النهائي لنصه، فيشكل الآخر تبعا لما سبق أبعادا مختلفة حسب ما يذهب إليه الناقد المغربي "سعيد خليفي" حيث يشكل الآخر بالنسبة للراوي جزءا أساسيا في بناء الرحلة، من كافة المستويات، باعتبار ان السفر هو مرآة الاعاجيب ومرآة النفس

[1] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص86.

[2] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص110.

التي لا ترى تفاصيلها إلا بالانتقال والاغتراب، والاحتكاك مع آراء وسلوكات وتقاليد الغير والاصطدام ببعضها والتوافق مع ابعض الآخر، حيث رؤية الذات صافية عبر المقارنات المتعددة والقاسية أحيانا.

فالكاتب حين ينتج نصه لا يمكنه أن يلغي شرعية الآخر فهو يمثل الجانب المهم من العملية السردية، فالرحلة تقوم بذلك على مرجعيات خطابية متعددة قامت بها الذات الكاتبة فعليا، في زمن الرحلة، أما السرد هنا فيمثل القالب الخطابي ذو الأبعاد الفنية والجمالية التي تصور لنا تمثلات الآخر.[1]

وبالعودة إلى رحلة جنائن الشرق الملتهبة، نجد أن الرحالة من خلال اللّغة استطاع توصيف المكان بأبعاده المختلفة ومن ثمة يصبح المكان شيئا مرئيا له شعور وجداني في ذهن المتلقي، فقد أعطى "خطيبي" سردا تصويريا للحياة الدينية في مجتمعات البقان، والتي تمثل عالم شديد الحساسية الذي غذته الصراعات فلا تزال الخلافات مستمرة، فهذا الخوف من الآخر المختلف وحالة التوتر التي كانت الحروب سببا فيها عاشتها ذات الرحالة اثناء سفرها من سلوفينيا إلى بلغراد، حين طلب منه شرطي التفتيش الحدودي جواز السفر ثم جرى بينهما حوار يعكس استمرارية حالة التوجس من الآخر المختلف "طلب مني جواز السفر" "قلبه بين يديه" "نظر إلى التأشيرة"، "تأكد من التاريخ المدون عليها ثم شرع في الأسئلة(لماذا جئت من البوسنة؟) (ماذا كنت تفعل هناك؟) (كم يوما قضيت هناك؟)[2] علامات تعجب تطفو على محياه، توجب علي أن أشرح له كل القصة ومن البداية، وبأنني جئت فقط في رحلة إلى البلقان، وليس لدي نوايا سياسية أو انتماءات، عكست هذه التجارب التي ينقلها لنا الكاتب طبيعة العلاقة بين الأنا والآخر التي تتسم أحيانا بالعداء وأخرى بتقبل الآخر.

كما نجد نظرة الأنا نحو الآخر من منظور المكان الذي يأخذ دورا مهما في العملية السردية، كونه مرتبط برصد تاريخ وجغرافيا الدول التي يزورها الرحالة.

كما أنه يمثّل هوية الآخر ويحيله على جوانب اقتصادية وسياسية واجتماعية، يضع لها الرحالة قالبها المناسب في خضم متنه السردي، فيأتي تأثيث الرحلة جامعا بين وظيفتي السرد والوصف مع اصباغ الحالات الشعورية التي تنطبع في الذات الساردة، وما يمكن أن تحمله من أبعاد دلالية، تساهم في جمالية

[1] **حمزة عمارة، محمد سرير**، المرجع السابق، ص ص1002، 1003.

[2] **سعيد خطيبي**، الرحلة، ص107.

النص الرحلي، هذا ما يمكن أن نتبيّنه في هذا المقطع السردي "تبدو زغراب كما لو أنها مدينة متوحشة، عدائية تصدم زائريها بتماثيل رموزها وهي على هيئة استعداد للهجوم للمقاومة أو المباغتة، مستعدة لقطع الرأس أو اليد أو فقء العين لكن ملامح ناسها الصامتة تعكس المعادلة".

يبقى صدق هذه الصور نسبي يرتبط بشعور فرد وليس جماعة، قد تتهيأ له الأماكن في صور مختلفة توحي بصفات البشر كالقتل وقطع اليد، فرحلة "خطيبي" تمثلت بلدان مختلفة تتميز بعادات وسلوكات مختلفة، كحديثه عن الصلاة التي تجمع الرجال وخلفهم النساء في البوسنة دونما عازل ولا حجاب، بسبب حالة التكافل والتسامح التي خلفتها سنوات الحرب تجذرت بعمق في المجتمع البوسني بسبب الحرب، والجميع يتفهم محنة الآخر وألمه، وهو امر عزز ويعزز التواصل الاجتماعي بين مسلمي البلد الواحد.

فهكذا نجد أنه قد تعددت صور الآخر ومظاهر تشكلها داخل نص الرحلة، وأن الكاتب قد وفق في تصوير فيض من الأحاسيس التي استطاع من خلالها الانغماس في فضاءات الآخر متأملا في أشكال الحياة ومساهمة في صناعة رؤية جديدة نحو بلدان أوروبا الشرقية، مبني على المثاقفة الإيجابية مع الآخر، فصور لنا الرحالة ومن زاوية رؤيته نص يعمل على خلق تواصل متكافئ مع الآخر.

فطبيعة الرحلة التي تمثل خلاصة تجارب الرحالة، تجعل منها مستمرة دوما في الزمان والمكان، فالسفر إلى الآخر هو عودة إلى الذات، من أجل إعادة تشييد عوالمها فرحلة "خطيبي" تمثل نموذج لسرد رحلي قائم على مهمة الاكتشاف والارتحال من أجل إعادة رسم صورة جديدة لأدب الرحلة، برؤية إبداعية من حيث الكتابة والطرح والرؤية فهو نص يمثل امتداد لنصوص الرحلات العربية القديمة، لكنه يتميز برؤيا جديدة ومعاصرة أتاحتها له العولمة التي نعيشها اليوم.[1]

[1] **حمزة عمارة، محمد سرير**، المرجع السابق، ص ص1004، 1005.

خلاصة الفصل:

في الأخير يمكن أن نستخلص أن رحلة جنائن الشرق الملتهبة، سرد رحلي ممتع ومتنوع جمع بين خطابات سردية ومعرفية متعددة، فهو مزيج بين ارتحالات السرد واستحضار موضوعات التاريخ والجغرافيا السياسية، وصراع الأقليات وتعدد الإثنيات في العالم، فهو نص رحلي غير ثابت، ربط بين جغرافيا المكان بحمولاتها الدلالية المختلفة وتأثيرها في نفسية الرحالة والمتلقي.

خـــاتـــمـــة

يعدّ أدب الرحلة خزانا لدراسة المجتمعات والثقافات والحضارات، كما أنه غني بالسرد، والخيال والحكي ومليء بالعجيب والغريب ومن ثم يمكن دراسته من زوايا ومناحي متعددة، وعليه فإن رحلة سعيد خطيبي جاءت لتكشف عن صورة الآخر في تمدنه وتحضره وتفوقه بالإضافة إلى صفات غير الحميدة كالحقد والكراهية.

وفي محاولة للإجابة على فرضية أن الأنا الذي يعاني من الدونية والرجعية رسم صورة الآخر بتناول أوصافه ومظاهره فبنى صورته بشكل مضاد ونقيض له، ومن هنا نستخلص ما يلي:

1- "جنائن الشرق الملتهبة" هي رحلة معاصرة قام بها رحالتنا الأنا (سعيد خطيبي) متنقلا من خلالها عبر مناطق مختلفة من بلاد الصقالبة: ليوبليانا، غراد، سراييفو، سربرنيتسا، بلغراد، كييف، ناقلا لنا صورة الآخر (البلقان) من اختلافات وعادات ومظاهر متشابهة.

2- توصل الأنا (سعيد خطيبي) لشيء مهم وهو أن بالرغم من وجود اختلافات ثقافية عند الآخر (بلاد الصقالبة) والأنا (بلاد الجزائر) إلا أن هناك مميزات مشتركة تجمع بينهما وشيء آخر كذلك وهو أن الفرد يسافر لتغيير الأفكار لا لتغيير المكان.

3- أعرب الأنا (سعيد خطيبي) اندهاشه أثناء مشاهدته لبعض العادات والمظاهر في بلاد الآخر (الصقالبة) واستغرابه لوجودها، فمن الناحية الأخلاقية يجنح للمحافظة والسلوك المعتدل في أغلب جوانبه كالاحتشام والأمن المنتشر، كما رصد لنا السلوكيات غير السوية على غرار الرشوة الفساد الإداري لكنها قليلة.

4- أعرب الأنا (سعيد خطيبي) بالإعجاب بالآخر (البلقاني) لإهتمامه بالفن والثقافة على خلاف الأنا العربي الذي لا يبالي لذلك كثيرا.

5- ما ميزّ الآخر (البلقاني) أيضا في نظر الأنا (سعيد خطيبي) المحافظة على اللغة الأم من خلال العمل على الاحتفاء بكبار اللغويين وفي ذات الوقت ترجمة مختلفة الأعمال للغة الأم، فاللغة تشكل

في ضوء الفعل الثقافي البلقاني لبنة أساسية لا يمكن الاستغناء عنها بأي شكل من الأشكال في بناء مشروع الهوية البلقانية.

6- تعتبر جنائن الشرق الملتهبة هي تلك المناطق الخلابة في بلاد الصقالبة والتي شهدت ولا زالت تشهد صراعات عرقية مختلفة، فسحر المكان يخبئ وراءه آلام وأحزان جراء الحروب التي ترتب عنها العيش في ظروف معيشية قاسية جعلت من الآخر (الصقالبة) يسعى لتحقيق غذ أفضل والتطلع نحو بداية جديدة يغمرها التفاؤل.

7- كما تعتبر الرحلة جنائن الشرق الملتهبة مثل شريط وثائقي عكس لنا الصراعات الدامية والحروب البلقانية والنزاعات التي شهدتها بلاد البلقان.

وفي الأخير يمكن القول أن "رحلة جنائن الشرق الملتهبة" سرد رحلي ممتع وتنوع جمع بين خطابات سردية ومعرفية وصور الانسان البلقاني وبلاد البلقان فكانت عبارة عن مزيج بين استحضار موضوعات التاريخ والجغرافيا السياسية، وصراع الأقليات وتعدد الإثنيات، وعيش الحاضر والتطلع إلى مستقبل مزدهر فقد ربط سعيد خطيبي بين جغرافيا المكان بحمولاتها الدلالية المختلفة وتأثيرها في نفسية الرحالة والمتلقي، فقط استطاع خطيبي رصد صورة الآخر ونقلها إلى الأنا العربي بكل موضوعية وواقعية.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: الـــقـــــرآن الـــكـريم.

ثانيا: الـــــمـصادر

- **سعيد خطيبي**، جنائن الشرق الملتهبة – رحلة إلى بلاد الصقالبة، الطبعة الأولى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 2015م.

ثالثا: الـــــمعاجم والقواميس

أ. الـــــمعاجم:

- **جبور عبد النور**، المعجم الأدبي، (د.ط)، بيروت، 1979م.
- **سعيد علوش**، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني، سوشبريس الدار البيضاء، 1985م.
- **عبد الله البستاني**، البستان، معجم لغوي مطول، المطبعة الأمريكانية، ط1، بيروت، 1927م.

ب. الـــقـواميس:

- **الفيروز آبادي**، القاموس المحيط، ط8، مكتبة تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، مصر، 2005م.

رابعا: الـــكـتـب

- **إبراهيم أحمد ملحم**، قراءة الآخر، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2008م.
- **إبراهيم خليل الشبلي**، الذات والآخر في الرواية السورية، ط1، دار الفضاءات للنشر والتوزيع، سوريا، 2018م.
- **ابن منظور**، لسان العرب، دار أحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1420هـ/1999م.
- **ابن منظور**، لسان العرب، مادة (صور)، المجلد8، ط3، دار صادر، بيروت، 2004م.
- **أبو القاسم سعد الله**، تاريخ الجزائر الثقافي، ج6، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1998م.
- **أغناطيوس كراتشكوفسكي**، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987م.

- **باشلار غاستون**، جماليات المكان، تر: غالب هسا، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 1984م.

- **توفيق الحكيم**، عصفور من الشرق، دار مصر للطباعة، القاهرة، ط1، 1988م.

- **جابر عصفور**، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب، ط3، المركز الثقافي العربي، مصر، 1992م.

- **حسين الشافعي**، تراث الشيخ محمد عياد الطنطاوي أول معلم للعربية في البلاد الروسية، ط1، أنباء روسيا، القاهرة، 2013م.

- **حسين فوزي**، سندباد إلى الغرب، دار المعارف، ط3، القاهرة، د.ت.

- **حسين محمد فهيم**، أدب الرحلات، عالم المعرفة، الكويت، 1989م.

- **حسين محمود حسين**، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط2، 1403هـ-1983م.

- **الخليل بن أحمد الفراهيدي**، كتاب العين، تر: عبد الحميد هنداوي، مج1، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424هـ/2003م.

- **خليل عماد الدين**، من أدب الرحلات، دار ابن كثير، لبنان، 2005م.

- **خير الدين التونسي**، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، مج1، تح: المنصف الشنوفي، شركة أوريس للطباعة، تونس، ط2، 2000م.

- **دانيال هنري باجو**، جاك مارك مولا، الصورة، الأنا، الآخر، تر: عبد النبي ذاكر، منشورات الزمن، سلسلة شروفات، المملكة المغربية، العدد 43، 2014م.

- **دانييل هنري باجو**، الأدب العام المقارن، تر: غسان السيد، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط، د.ت.

- **داود سلوم**، الأدب المقارن في الدراسات المقارنة التطبيقية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 2003م.

- **الرشيد بعلي حفناوي**، مسارات النقد ومدارات ما بعد الحداثة في ترويض وتقويض الخطاب، دروب للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2011م.

- **رضوان بلخيري**، سيميولوجيا الصورة بين النظرية والتطبيق، دار قرطبة للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 2012م.

- **زكريا القزويني**، عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ط5، مصر، مكتبة البابي الحلبي وأولاده، 1980م.

- **زكي أحمد**، السفر إلى المؤتمر، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، الدار المصرية اللبنانية، 2000م.

- **زكي نجيب محمود**، تجديد الفكر العربي، ط9، القاهرة، 1993م.

- **سعيد بن سعيد العلوي**، أوروبا في مرآة الرحلة، (د.ط)، كلية الآداب، الرباط، 1995م.

- **شعيب حليفي**، الرحلة في الأدب العربي (التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل)، ط1، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006م.

- **الطاهر لبيب**، الآخر العربي ناظرا ومنظورا إليه، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1999م.

- **طه حسين**، مستقبل الثقافة في مصر، دار المعارف، القاهرة، ط2، د.ت.

- **عادل النفاتي**، غيرية المدينة الغربية في مدونات الرحلة العربية للقرن التاسع عشر، دورية كان التاريخية، السنة السادسة عشر، العدد الستون، يونيو 2023م.

- **عبد الرحمن ابن خلدون**، مقدمة ابن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، 2001م.

- **عبد الله بن حمد الحقيل**، رحلات إلى الشرق والغرب، الطبعة الأولى، المملكة العربية السعودية، 1993م.

- **عبده عبود**، هجرة النصوص دراسات في الترجمة الأدبية والتبادل الثقافي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999م.

- **عدنان يوسف العتوم وآخرون**، التواصل الاجتماعي من منظور نفسي واجتماعي وثقافي، علم الكتب الحديثة، إربد، الأردن، د.ط، 2011.

- **علي تابليت**، خمس رحلات جزائرية إلى باريز، منشورات جامعة الجزائر، الجزائر، د.ط، 2012.

- **عمرو عبد العلي علام**، الأنا والآخر الشخصية العربية الإسرائيلية المعاصرة، دار العلوم للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط1، 1426هـ/2005م.

- **الفيومي المقري**، المصباح المنير، المكتبة المصرية، صيدا، دط، 1996م.

- **كامل محمد محمد عويضة**، أحمد أمين المفكر الإسلامي الكبير، دار الكتب العلمية، د.ط، بيروت، 1995م.

- **كمال بن محمد الريامي**، مشاهير الرحالة العرب، كنوز للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة، 1434هـ- 2014م.

- **ماجدة حمود**، إشكالية الأنا والآخر نماذج روائية عربية، دار الفنون والثقافة، الكويت، د.ط، 2013م.

- **محمد عبد المنعم خفاجي**، مدارس النقد الأدبي الحديث، الدار المصرية اللبنانية، ط1، بيروت، 1995م.

- **محمد عمارة**، رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث، الطبعة الثالثة، دار الشروق، القاهرة، 2007م.

- **محمد عياد الطنطاوي**، رحلة الشيخ الطنطاوي إلى البلاد الروسية 1840-1850 المسماة بتحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا، تقديم: محمد عيسى صالحية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1992م.

- **محمد غنيمي هلال**، الأدب المقارن، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، لبنان، ط5، 1987م.

- **محمود فهمي حجازي**، أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي، ط1، منشورات الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1974م.

- **المهدي الغزال**، نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد، تحقيق: اسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م.

- **ناجي غويجان**، تطور صورة الشرق في الأدب الإنجليزي، تر: الأصباغ، المنظمة العربية توزيع مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2008م.

- **نجم عبد الله كاظم**، نحن والآخر في الرواية العربية المعاصرة، دار الفارس، بيروت، لبنان، ط1، 2013م.

- **نوال شوايكة**، أدب الرحلة الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ط1، دار المأمون للنشر، عمان، الأردن، 2008م.

- **يوسف بكار، خليل الشيخ**، الأدب المقارن، الشركة الوطنية للتسويق والتوريدات، القاهرة، جمهورية مصر العربية، دط، 2009م.

خامسا: مـــذكـرات الـــتـخـرج

أ. أطـروحـــات الـــدكـتـــوراه:

- **بلال سالم الهروط**، صورة الآخر في أدب الرحلات الأندلسية، أطروحة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، جامعة مؤتة، الأردن، 2008م.

- **جميلة روباش**، أدب الرحلة في المغرب العربي، أطروحة دكتوره، تخصص أدب جزائري قديم، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2015/2014م.

- **نسرين زيادة**، العلاقات العامة الرقمية وبناء الصورة الذهنية عن المؤسسة الخدماتية، أطروحة دكتوراه، تخصص: اتصال وعلاقات عامة، جامعة الجزائر 3، 2023/2022م.

ب. رســـائـــل الـــماجـــسـتـــير:

- **بن علي الحاج**، تمظهرات الآخر في الرواية المغاربية، أطروحة مقدمة لنيل درجة الماجستير، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب واللغات والفنون، جامعة وهران، 2010/2009م.

- **تمار هند**، تداخل الأجناس الأدبية في أدب الرحلة، مدونة ابن حمادوش نموذجا، مذكرة من متطلبات نيل شهادة الماجستير، جامعة غرداية، قسم الأدب العربي، تخصص الأدب العربي قديما وحديثا، 2015/2014م.

- **مي عودة أحمد ياسين**، الآخر في الشعر الجاهلي، رسالة مكملة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية، كلية الدراسات لعليا، إحسان الديك، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، د.ط، 2006م.

سادسا: الـــمـقالات الـعلمية

- **أحمد صانع**، الرحلة: بين الأدبية والإنثوغرافية، مقاربة في نصوص رحلية، دراسات معاصرة، مجلة علمية دولية، المجلد5، العدد2، بوزريعة، الجزائر، 2021م.

- **بوقرط طيب**، أدب الرحلة بين محوري التموقع والتوقع من منظور النقد الأدبي قراءة في الإشكالات والآفاق، مجلة تاريخ العلوم، ع7، 2017م.

- **جمال بلعربي**، التعبير عن الأنا من خلال وصف الآخر في أدب الرحلة، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، المجلد 9، العدد04، الجزائر، 2020م.

- **حمزة عمارة، محمد سرير**، السرد الرحلي وتمثلات صورة الآخر في جنائن الشرق الملتهبة رحلة في بلاد الصقالبة لسعيد خطيبي أنموذجا"، مجلة المدونة، المجلد 10، العدد 1، مخبر الدراسات الأدبية والنقدية، كلية الآداب واللغات، جامعة لونيسي علي – البليدة، جامعة يحي فارس – المدية، 2023م.

- **دوحة عبد القادر**، الحياة الإقتصادية والإجتماعية في أوروبا خلال القرن 19م في عيون الرحالة العرب، مجلة الحوار المتوسطي، 2017م.

- **عبد الحميد عومري**، الرحلات الجزائرية إلى فرنسا خلال القرن التاسع عشر رحلة ابن صيام والرحلة القادية في مدح فرنسا وتبصرة البادية أنموذجا، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية، المجلد التاسع، العدد الأول، 2024م.

- **فاطمة الزهراء رحماني، محمد دراج**، الرحلة أداة تواصل بين العرب والغرب الأوروبي خلال القرن 19 "الرحلة المصرية التونسية أنموذجا، مجلة دراسات وأبحاث، المجلة العربية في العلوم الإنسانية والإجتماعية، مجلد 10، العدد 4، ديسمبر 2018م.

- **فاطمة الغزال**، صورة الآخر في رحلة رفاعة الطهطاوي "تخليص إبريز في تلخيص باريز"، مجلة علمية دولية، المجلد 10، العدد 02، جامعة محمد بوضياف، المسيلة، 2022م.

- **لويزة جبابلية**، تمثلات الهوية بين الأنا والآخر وفق جدلية المركز والهامش، مجلة هيرودوت للعلوم الإنسانية والإجتماعية، المجلد 07، العدد 03، جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي، تبسة، 2023م.

- **محمد حاتمي**، في خطاب أدب الرحلة، مجلة فكر ونقد، عدد 87، السنة التاسعة، مارس 2007م.

سعيد خطيبي
جنان الشرق الملتهبة
رحلة في بلاد القبائل
مكتبة نوميديا 42

الملاحق

الملحق رقم (01): صورة لغلاف رحلة سعيد خطيبي

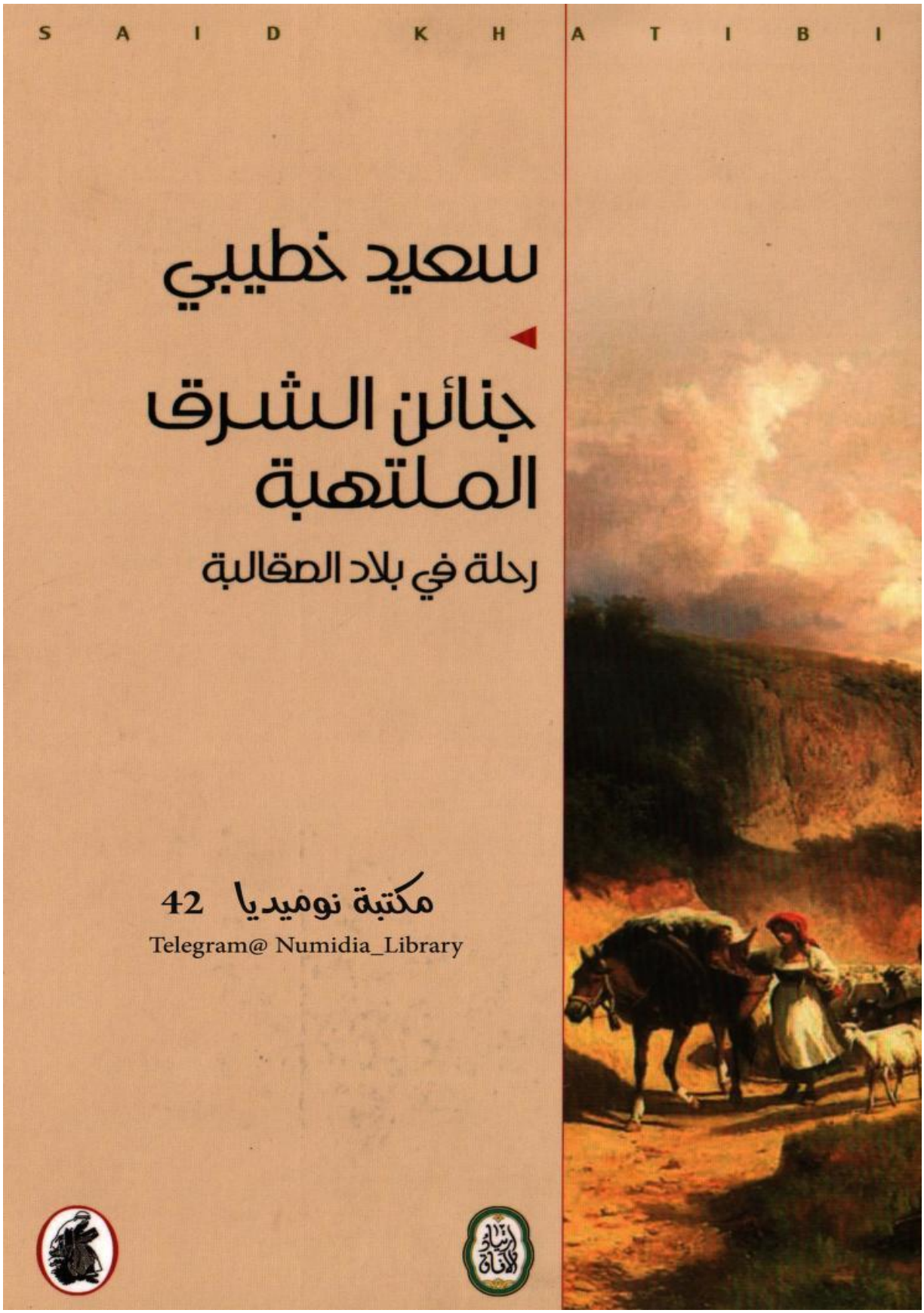

الملحق رقم (02): ليوبليانا

ليوبليانا "صوت خافت يصعد من تحت البلاط، يخاطب المارة، يوشوش في آذانهم، ويحثهم على الإنصات إلى أعماقهم. يجرهم بهدوء إلى خشوع المدينة، وخجلها الإنساني في مصافحة الزائر، وتسترها الرزين خلف صمتها الصاخب".

الملحق رقم (03): سربرينيتسا

سربرينيتسا «الرتابة سمة من سمات البلدة، رتابة وترقب وضبابية المستقبل... المتسكع في شوارع البلدة الصغيرة يشعر كما لو أنها ملت انتظار التغيير، لا شيء فيها تغير منذ يوم الفاجعة، وتكرار اليوميات يذكرها بألم ليالي صيف 1995 الطويلة. سربرينيتسا اليوم لم تنزع عن نفسها رداء الحداد، كما لو أنها امرأة منبوذة، ولا رثاء لها سوى صلوات المؤمنين ورضاها بالقدر وقناعاتها بأن رب السماوات سيعيد لها بياضًا ضاع منها واعتقدت أنه لن يعود أبدًا».

الملحق رقم (04): بلغراد

بلغراد «في بلغراد... الحب يولد بين جنبات الأحياء الشعبية المزدحمة، وطعم الحياة يزداد حلاوة كلما استعاد الفرد لحنًا قديمًا أو ذكرى من الماضي القريب-البعيد في آن». أما ليل بلغراد، فهو موحش، مرتبك، يتسربل بالتوتر والقلق والتيه، ومع ذلك فإن «بلغراد المتعبة يبدو عليها استعداد لنفض غبار ما مضى، رغبة منها في إعادة رسم البسمة على وجهها الممتلئ شبابًا، فرغم الأحزان يعيش أبناء المدينة فرحًا بانتصارات رياضية صغيرة.. يرددون أغاني تراثية ويرسلون باقات ورد إلى المستقبل».

الملحق رقم (05): كييف

كييف "الحياة تسير بشكل حذر، خجول... تبدو كييف حكاية ممزقة، تعيش اضطرابًا وشتاتًا داخليين، غير قادرة على استيعاب الصدمات التاريخية المتتالية، والتي تزايدت حدتها في السنوات العشر الماضية...".

الملحق رقم (06): الصفحة الرسمية لسعيد خطيبي "فايسبوك"

Saïd Khatibi

٢٠٢٣/١١/٠٩ ·

«سعيد خطيبي وأدب القطيعة»

شكراً للصّحافي القدير Iddir Nadir على كرم الاهتمام

وعلى هذا المقال

الذي صدر في جريدة El Watan

Saïd Khatibi, émergence d'une littérature de rupture

Saïd Khatibi
٣ أيام ·
الثّلاثاء، 28 نوفمبر
في معرض الكويت الدّولي للكتاب
ندوة: سردية الدّمار.. بين الحدث التّاريخي والمخيال الأدبي
برفقة الكاتب العراقي: أزهر جرجيس
إدارة: على الشوكى
شكراً لإدارة المعرض على الدّعوة الكريمة
«سردية الدمار:
بين الحدث التاريخي والمخيال الأدبي»
28 نوفمبر 2023 — 6:30 م — رواق الثقافة

Antoine A. Antoine

٢ س ·

الكاتب سعيد خطيبي في جناحنا في معرض الكويت

ملخص

إضافة فريدة من نوعها متمثلة في رحلة "**جنائن الشرق الملتهبة – رحلة في بلاد الصقالبة**"، للكاتب والصحافي الجزائري "**سعيد خطيبي**" التي خصصها لأرض الصقالبة أو البلدان السلافية وأوكرانيا، إلى المنجز الرحلي العربي الذي حقق تراكما نوعيا في السنوات الأخيرة، ساهمت فيه ثلة من الكتاب من حقول أدبية ومعرفية مختلفة.

وأكد على راهنية النص الرحلي وانفتاحه المستمر وقدرته على مواكبة التحولات والمستجدات التي يعرفها العالم على المستوى التقني والمعرفي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي وما تطرحه من أسئلة حول الهوية والتاريخ والجغرافيا والأحوال والمصائر، الأمر الذي يمنح النص الرحلي دينامية متواصلة منفتحة على تجدّد أشكال السفر وظروفه وشروطه، وكذلك الرؤى الفنية والمعرفية للمرتحلين.

الكلمات المفتاحية: أدب الرحلة، الصورائية، الأدب الرحلي، صورة الآخر، سعيد خطيبي، جنائن الشرق الملتهبة رحلة إلى بلاد الصقالبة.

Abstract:

*A unique addition represented by the journey **"The Flaming Gardens of the East - A Journey in the Land of the Saqlaba"**, by the Algerian writer and journalist **"Saïd Khatibi"**, which he devoted to the land of the Saqlaba, or the Slavic countries and Ukraine, to the Arab travel achievement that has achieved a qualitative accumulation in recent years, contributed It contains a number of writers from different literary and cognitive fields.*

He emphasized the currentness of the nomadic text, its continuous openness, and its ability to keep pace with the transformations and developments that the world is experiencing at the technical, cognitive, political, economic, and social levels, and the questions it raises about identity, history, geography, conditions, and destinies. Which gives the travel text a continuous dynamism that is open to the renewal of travel forms, circumstances and conditions, as well as the artistic and cognitive visions of the travellers.

***Keywords**: Travel literature, Imagery, Travel literature, The image of the other, Saeed Khatibi, The blazing gardens of the East, A journey to the land of Saqlaba.*